البلاغة العربية والتداولية الغربية
بين الثابت والمتغير "دراسة بلاغية نقدية"

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الخامس
(مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)
المنعقد في ١٨ مارس ٢٠٢٣م
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية
جامعة الأزهر

إعداد الدكتور

شحاتة عبد الرازق أبوشوشة

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية
جامعة الأزهر

البلاغة العربية والتداولية الغربية –بين الثابت والمتغير –دراسة بلاغية نقدية

شحاتة عبد الرازق أبوشوشة
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الالكتروني: Shehata.Abdelrazek@azhar.edu.eg

الملخص :
تتناول هذه الدراسة بعض الثوابت التي تجلت في النظرية البلاغية العربية، كما تتناول النشأة الغربية للتداولية، التي تعد المنهج الأحدث في الاتجاهات اللغوية التي برزت وازدهرت واحتلت مكانة عالية في الدراسات الغربية،
وخلصت الدراسة إلى أن للبلاغة العربية ثوابت ضمنت لها استمرارية العطاء وخدمة البيان القرآني والدفاع عن إعجازه البلاغي، وإظهار جمال البيان الإنساني العربي البليغ. وكفلت لها الصمود في مواجهة أصحاب الميول التغريبية وواسميها بالبلاغة القديمة، والمتقممين ما تساقط من على موائد الأمم الأخرى.
وأشارت إلى خطورة تبني نظريات –كالتداولية– نبتت في غير بيئة التراث العربي الثري ومحاولات تطبيقها على البيان العربي، مما أوجد العديد من الدراسات المهجنة، فما هي بالعربية الخالصة، ولا بالغربية الواضحة. وهي ظاهرة علمية مرضية، ستحتاج سنوات للتعافي منها. لما أدت إليه من تكاسل العقل العربي حتى أصبح استهلاكيا لا إنتاجيا، وأن هذه المناهج الغربية لا تقدم جديدا عما تقوم له وبه النظرية البلاغية، غير أنها تعد تناولا عصريا لبعض قضايا البلاغة العربية.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، التداولية، التواصلية، الثابت، المتغير.

Arab Rhetoric and Western Legislation between Variant and Constant- A Critical Rhetoric Study by

Shehata Abd al-Razek Abu Shushah
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies, Alexandria, Al-Azhar University, Egypt.
Email: Shehata.Abdelrazekazhar@.edu.eg

Abstract:
This study examines some of the perspectives reflected in the Arab rhetorical theory, as well as the Western formation of deliberation, which is the most recent method in language trends that have emerged, flourished, and occupied a high position in Western studies. The study concludes that Arabic rhetoric was a constant that ensured the continuity of giving and servicing the Quranic statement, defending its rhetorical charm, and demonstrating the beauty of the eloquent Arab humanitarian statement. It has ensured that it can face the Western tendencies who described them as old eloquence and people that aren't related to the other nations.
This study has pointed out the danger of adopting theories such as deliberation that haven't emerged in the environment of the rich Arab heritage and attempts to apply it to the Arabic rhetoric, which has created many hybrid studies because of the laziness of the Arab mind, it has become a consumerist rather than a productive one. These Western methods do not provide a new introduction to the rhetorical theory, but they are a modern approach to some issues of Arabic rhetoric.

Keywords: Deliberative rhetoric, communication, constant, and variant.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى.

وبعد:

فإن تناول الموضوعات المعاصرة بالنقد البناء من الموضوعات التي تحتاج جهدا وإرادة وحذرا وحيطة، وبخاصة إذا كانت من الموضوعات التي التف حولها الكثير من الباحثين والدارسين في جميع أفرع العلوم العربية والإسلامية، كالتداولية التي أضحت قبلة للكثير من الدراسات المعاصرة.

وهذا يثير في النفس قلقا على مستقبل عقول الأجيال القادمة، تلك الأجيال التي تعايش تأزم واقع أمة حائرة، أمة تملك تراثا معروفا بأصالته وثرائه وعميق أثره، فإذا بتلك الأجيال تجد نفسها بين فريقين: فريق تجمد فكره وعطاؤه مكتفيا بما سطره الآباء من علم ومعرفة دون تدبر وإنعام نظر في هذا التراث للمشاركة في تهذيبه وتجديده في صورة معاصرة.

وفريق تكلست عقولهم، وأمسكت معاول الهدم، وانهالت على تراث الأمة تهوينا ونقضا وهدما، وانبهرت ببهرجة ما يتساقط من على موائد الثقافة الغربية، وانبرى هذا الفريق لإغراء العقول الغافلة، وذوي الميول التغريبية بما وقعت أيديهم عليه من مناهج ثقافات الأمم الأخرى وإلهائه بها عن علوم أمته وثقافتها.

وما كانت ولن تكون المشكلة في علوم الأمة وتراثها، وإنما تكمن المشكلة في ضمور مهارة التفكير الإبداعي وتحجرها، وسجنها في جحور موائد ثقافة الغير، في حين كانت أول كلمة نزلت من كتابنا المقدس (اقرأ) والقراءة بداية زيادة الوعي وتنمية القدرة التفكيرية التي تشع في عشرات الآيات القرآنية التي تدعونا إلى التفكير في الكون والحياة ومصير الأمم السابقة، وتأمل المستقبل الذي يمتد إلى يوم القيامة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) الحشر/ ١٨

إن تراث الأمة الجليل القدر لا يجدي معه الفريقان السابقان، وإنما يحتاج إلى عقول تؤمن بوفرة هذا التراث وغناه وأصالته، فتقبل عليه بعقول متفتحة، وصدور منشرحة، وعزيمة ماضية، فتتدبره، وتتأمله، وتفتش في قضاياه، وتتابع نماء أفكاره منذ مرحلة الولادة إلى البلوغ والاكتمال، فتهذب وتضيف وتجدد وتطور في ثياب معاصرة مغرية لهذه الأجيال المتعطشة إلى هذا التراث بما يحمل من فكر أمة وقيمها وشرفها وعزها، يقول الطاهر بن عاشور: (ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضرر كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده، عالما بأن غمض فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة)[1].

ولا يعني هذا أنني أدعو إلى غلق الباب أمام العقول الباحثة عن الجديد في أي ميدان، فمن المستحيل الحجر على العقول وحبسها في ميدان أو منهجية، وإنما أطالب بأن يكون البحث والتنقيب في تراث الآخرين سبيلا للتدبر وحسن النظر في ركاز تراثنا وخبيئه.

وانطلاقا من باب إظهار سمو تراثنا البلاغي وأصالته، فقد عقدت العزم على دراسة هذا الاتجاه التداولي دراسة فاحصة متدبرة، والمقارنة بينه وبين التواصلية في البلاغة العربية، والتي تولي اهتماما بالغا بمقاصد المتكلم، وبالمخاطب ورعاية مقتضى حاله، وقد جمعت هذه التواصلية في جملة عبقرية قالها البلاغيون الأجداد (لكل مقام مقال).

وزادت رغبتي في هذه الدراسة بسبب ما لمسته من توجه غالبية الدراسات الحديثة إلى هذا الاتجاه التداولي، ولم يقتصر الأمر على الدراسات اللغوية

١ التحرير والتنوير/ ١/ ٧/ السداد التونسية/ ١٨٨٤م

والبلاغية، بل غزا هذا المنهج التداولي جميع فروع الدراسات الإسلامية أيضا، حتى أضحت التداولية حاضرة في معظم المؤتمرات التي تقيمها الجامعات العربية والإسلامية، وفي بعض هذه المؤتمرات تكون التداولية محور المؤتمر ومركزه وسيدته في التفسير والحديث والفقه، وجميع مكونات الدراسات الإسلامية والعربية.

وكانت هذه الدراسة الموازنة (البلاغة العربية والتداولية الغربية–بين الثابت والمتغير) القاصدة إلى تقرير الأصول التاريخية والسياقية والفكرية لكل منهما. وتأكيد ما تملكه الأمة من تراث واضح المعالم، جلي المقاصد، له حضور فكرى، وإرث ثقافي، لا ينبغي لهذا الغزو الثقافي أن يهيل عليه التراب، ولا أن يفسح المجال لهذا الفكر العربي الاستهلاكي الذي يألف مدَّ اليد ليتقمم الأدنى، ويسيء للذي هو خير وأعلى، أن يشوش عقول الناشئة وينحرف بها عن هذا التراث الذي بنى أمة ملكت ونمت، وسادت وعلت–دون دراسة ناقدة كاشفة عن أصالة تراثنا البلاغي وسعته وقابليته للتجديد المناسب للعصر إذا وجد من يثير كوامنه، ويستخرج أدفانه، ويجلي خباياه.

واخترت هذا العنوان ليشتمل بما فيه من مطابقة بين (العربية) و(الغربية) على سبب المشكلة، وهو تغول الثقافة الغربية ومحاولاتها تهجين النظرية البلاغية، وهي أهم العلوم –كما يقول أبو هلال العسكري–بعد معرفة الله تعالى، وتراجع العقول العربية عن الإنتاجية العلمية والثقافية، والوقوف في طوابير التسول لما تنتجه المطابع الغربية، ليتخذ منها مخرجا من ضمور التفكير وتصلبه.

والدراسات التي تناولت التداولية كثيرة لا يمكن حصرها في هذه المقدمة، وهي بين سبيلين: إما سبيل يروج لها، ويقاتل من أجل استبدالها ببلاغتنا، حتى أصبح اسم البلاغة القديمة عناوين كتب وبحوث عديدة، وخطر هذا الفريق كبير على العقول الناشئة، وإما سبيل يبذل ما في وسعه لإثبات أن البلاغة تشتمل

على ما يكاد يقاربها من النهج التداولي الغربي، وهذا الفريق من حيث لا يدري يرفع من شأن التداولية ويجعلها أصلا في التواصلية، ويقيس عليها ما يشبهها في البلاغة العربية من وجهة نظرهم، وهذا بلا شك يسيء إلى تراثنا الخالد، ويشوش على البلاغة التي نشأت وتطورت في رحاب البيان القرآني الكريم، وجهود أئمة الإعجاز في نشأة البلاغة واكتمالها كعلم من علوم العربية والقرآن الكريم لا يمكن تجاهلها، ولم تنفصل عنه بعد اكتمالها، فأثرها في أسفار المفسرين ذوي الميول البلاغية جلي منذ شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، والكشاف للزمخشري إلى التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وما زالت مرتبطة بقضية الإعجاز وبيانها لجماهير الأمة والدفاع عن معجزة القرآن الكريم وعلو بيانه.

ولتحقيق مقصد هذه الدراسة بنيتها على مقدمة ومبحثين، وخاتمة وفهرس المصادر والمراجع:

المبحث الأول: الأصالة بين البلاغة والتداولية.

المبحث الثاني: التواصلية بين البلاغة والتداولية.

الخاتمة: وتشتمل على خلاصة لمخرجات هذه الدراسة.

فهرس المصادر والمراجع.

والله أسأل التوفيق والسداد والعون والمدد والقبول.

المبحث الأول: الأصالة بين البلاغة والتداولية.

البلاغة العربية نشأة وتطورا:

من الثوابت التي لا يمكن تجاوزها أو التغافل عنها النشأة العربية والإسلامية لعلوم البلاغة، وهذا الثابت لا يحتاج إلى توضيح، فما أوضحه! ولا يتطلب البحث فيه عناء، فما أسهله! فمن يروم دراسة هذا الجانب يجد بكل جلاء أن البلاغة العربية نشأت في جو عام تعددت فيه المجالات والطوائف الفكرية والعلمية التي أسهمت في نشأة البحث البلاغي، كالخطباء والشعراء والمتكلمين واللغويين والنحاة والمفسرين والفقهاء، حتى عمد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين إلى جمع ملاحظاته البلاغية وملاحظات معاصريه، ونقل آراء العرب السابقين له، ولم يضع لها قوانين وقواعد وتقسيمات محددة، واكتفى بتصويرها في أمثلة محددة كانت رافدا لمن جاء بعده[1]، وللتراث البلاغي الكبير تاريخيا ثلاث مراحل، يمكننا رصدها تحت هذه العناوين الثلاثة:

مرحلة السليقة الفطرية:

كانت العربية بكل مكوناتها اللغوية والفكرية والوجدانية سليقة عربية، تجري على اللسان كما يجري الدهان، فصيحة الكلمات، بليغة التراكيب، جزلة العبارات، دون أن يكون لهم علم بعلومها التي دُوِّنت بعد، ولكلمة دُوِّنت وقع دقيق على الفكر العربي وحضارته، لما فيها من دلالة واضحة على أصالة العلوم العربية والإسلامية نشأة وتطورا، تلك العلوم التي دونت في العصر الثاني الهجري (عصر التدوين) والعصور اللاحقة أسست من البيان القرآني والبيان الإنساني شعرا ونثرا، وكان للمسلمين من غير العرب مشاركة فاعلة في تدوين هذه العلوم، كما فعل سيبويه في كتابه، وأبو هلال العسكري في الصناعتين، وعبد القاهر في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، والزمخشري في كشافه، فلعلماء

١ ينظر/ البلاغة تطور وتاريخ/ د/ شوقي ضيف/ ٥٨/ ط١٢/ دار المعارف ١٩٦٥م.

الأمة المؤسسين فضيلة استخراج العلوم العربية والإسلامية من التراث العربي الذي لا مثيل له، قدرا وكما وفكرا وقيما.

والقول بعلو مكانة البيان العربي ليس ضربا من الخيال أو التخمين أو المبالغة، وإنما هو حقيقة علمية، حيث كان اهتمام أرباب البيان العربي الأوائل كبيرا بتثقيف إنتاجهم الأدبي: شعرا وخطابة، وتهذيبه، وتنميقه، حتى كان من شعرائهم كما يقول الجاحظ: (من يدع القصيدة عنده حولا كريتا، وزمنا طويلا، يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره)[1] ومثل هذا القول من أحد مؤسسي علوم العربية يرسم لنا صورة واضحة الدلالة على الوعي العربي الكبير ببيانهم، وحرصهم على بلوغه المنزلة العالية، حتى كانت تسمى هذه القصائد بالحوليات والمنقحات والمحكمات، احتفاء بها واعترافا بمكانتها وعلو منزلة شاعرها، الذي ينال وسام التكريم بمنحه لقب الشاعر الفحل الخنذيذ المفلق[2].

وفي التاريخ الأدبي العربي توجود مدرسة عرفت بعدم نشر ما تنظم من الشعر إلا بعد المراجعة والتدقيق والتصفية، ورواد هذه المدرسة أوس بن حجر التميمي، ثم زهير بن أبي سلمى وابنه كعب، ثم الحطيئة، وهدبة بن الخشرم العذري، وجميل بن معمر، وورثه منه كثير[3]. وقد وصفهم الأصمعي بأنهم عبيد الشعر[4]. وهو وصف معبر عن تعظيمهم لشأن الشعر، وتريثهم في قوله، أو روايته.

---

١ البيان والتبيين/ ٢/ ٩/ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢ ينظر السابق والصفحة نفسها.

٣ الأغاني/ لأبي الفرج الأصفهاني/ ٩/ ٣٤٠/ دار الكتب.

٤ البيان والتبيين/ / ٢/ ١٣.

وأما المقولات النقدية فقد بدأت ذوقية خالصة قائمة على الاستحسان دون توضيح لأسبابه، أو على الاستهجان دون الكشف عن علله، فنقداتهم كانت بعيدة عن التحليل والتعليل، وكانت السليقة كافية في هذا العصر. ثم تأتي نظرات عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في عصر صدر الإسلام لتحدث نقلة كبيرة في المجال النقدي البلاغي، ومن الشواهد المشهورة في ذلك تعليله لوصف زهير بن أبي سلمى بأنه شاعر الشعراء بقوله: لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما هو فيه[1]، وهذه نظرة عميقة في التعليل لشاعرية زهير وريادته، وتعد إرهاصا بعصر بلاغي نقدي جديد.

وهذا ما حدث بالفعل، حيث لم تتوقف المسيرة النقدية البلاغية منذ الجاحظ في البيان والتبيين، وابن طباطبا في عيار الشعر، وقدامة في نقد الشعر، والآمدي في الموازنة، والقاضي الجرجاني في الوساطة، والعسكري في الصناعتين، وابن رشيق في العمدة، والخفاجي في سر الفصاحة، وقد تجاوزوا مرحلة التأثرية المحضة إلى مرحلة التعليل، لما يقبل أو يرفض.

البلاغة الذوقية التعليلية:

ثم جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني لينتقل بالدرس البلاغي إلى مرحلة جديدة، ومكانة سامية، فكل التراث البلاغي الذي وقع بين يديه في نهاية القرن الخامس الهجري كان كالرمز والإشارة والتنبيه إلى دفين أو خبيء[2]، وتكرار هذا المعنى في كتابيه يكشف عن غموض هذا العلم وحاجته إلى الوعي والتدبر وإعمال النظر لاستخراج كوامنه، والعلم العزيز الشريف لا يفضي بأسراره إلا لمن

١ طبقات فخول الشعراء/ محمد بن سلام/ ١/ ٦٣/ شرح/ محمود شاكر/ دار المدني بجدة.
٢ دلائل الإعجاز/ ٣٤/ ت/ محمود شاكر/ مكتبة وهبة.

يبذل ويضحي. وسنزيد المسألة بيانا في التناول لقضية قابلية البلاغة للتجديد والتطوير المناسبين لكل عصر وثقافته.

لذلك أرى الإمام في دلائل الإعجاز قد بذل جهدا يليق بهمته وعبقريته الفذة ليضع قواعد نظرية النظم كأساس لفهم إعجاز القرآن الكريم، ومقياس لفهم فضيلة الكلام. وفي كتابه (أسرار البلاغة) يتحدث عن المعاني الشعرية وأقسامها، ويبحث عن الآثار النفسية للتشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية وضروب التخييل وغيرها. وكان منهجه الذوق الأدبي البعيد عن كثرة القواعد والتقسيمات[١].

وهذ النقلة الكبيرة والمتقدمة كانت تعتمد منهج الاستقراء للقواعد والأصول من كلام العرب، ومن الواضح في منهج الإمام في كتابيه أنه كان يجمع مادته العلمية أولا، ثم يفحص ويفتش ويتدبر ثم يقرر مسألته التي يريد أن يتلقاها دارسوه، وقد كشف عن تلك المنهجية التي ارتضاها بقوله: (ثم إنك تحتاج أن تستقري عدة قصائد، بل أن تغلي ديوانا من الشعر، حتى تجمع منه عدة أبيات)[٢] ورغم ثقل هذا المنهج، وصعوبته، إلا أن الإمام التزم به، ودعا إليه في قوله: (حتى تستوفي القطعة، وتأتي على عدة أبيات)[٣] ومعنى هذا أن البلاغة نشأت بكرا استقت معالمها وقواعدها من كلام العرب، ولم تكن وليدة ثقافة الأمم الأخرى كالإغريق واليونان.

ولم يتجرأ أحد على اتهام الإمام عبد القاهر بتأثره بغير العرب إلا الدكتور/ طه حسين ومن تبنى فريته، حيث ادعى بأن الإمام عبد القاهر ما هو

١ سمات الدرس البلاغي بين الإمامين: عبد القاهر والسكاكي–نقدا وموازنة/ للباحث/ ٨٤٢/ المؤتمر العلمي الدولي الثالث/ قضايا التراث العربي والحضاري– التحديات والآمال. كلية اللغة العربية إيتاي البارود.

٢ دلائل الإعجاز/ ٨٩/ ت/ محمود شاكر/ مكتبة وهبة.

٣ دلائل الإعجاز/ ٨٨.

إلا فيلسوف يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه[1]، ولم لا يهاجم الإمام عبد القاهر الذي أسس هذا العلم الشريف، ووصل بنظرية النظم إلى مكانة سامية أضحت موردا لكل النظريات الحديثة التي اتكأت على زاوية من زواياها، واستمدت من معينها. إن (عظمة عبد القاهر، وعبقريته، وما أداه للبيان العربي، كل أولئك جعل الأضواء تسلط عليه بشكل ملموس، لذلك لا تعجب إن وجدت جهودا مركزة، وأقلاما وألسنة، توجه نحو الشيخ ... وهذا بالطبع لم يكن إلا بزعامة عميد الأدب العربي)[2] والهدف من وراء ذلك ليس الطعن في هذه العقلية الجرجانية المبدعة، وإنما المستهدف الوصول إلى نتيجة مفادها أن البلاغة منسولة من التراث اليوناني، وأن أرسطو هو أبو البلاغة اليونانية والعربية.

البلاغة التعليمية:

ثم بدأت مرحلة منهجية جديدة قائمة على منهج التيسير والتقريب القائم على تقسيم علوم البلاغة وتقعيدها وتعريفاتها ومفاهيمها على يد الإمام السكاكي في مفتاح العلوم، ثم الخطيب والسعد التفتازاني ومن تبعهما من الشراح لمفتاح العلوم.

وقد غلب المنهج السكاكي على الدرس البلاغي وسيطر عليه زمنا طويلا، مما دعا بعض الباحثين إلى اتهامه ومن نهج نهجه بتجفيف الدرس البلاغي وتجميده وتحويله إلى قواعد معيارية ثابتة، وقوالب منطقية جافة جامدة، وأنها شيء آخر غير النقد الذي بقي يبحث ويجتهد ويكتشف ويتكيف مع

١ ينظر/ البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية/ د/ فضل حسن عباس/ ١٩٦/ دار الفرقان/ ط٢- ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢ البلاغة المفترى عليها/ ١٩٧.

المستجدات[١]، وهم ثلة خدعوا ببريق الثقافة الغربية وسرابها، وشغلوا عن ميدان الدرس البلاغي العربي والإسهام في تطويره وتوسيع ميادينه وتنويع أدواته ووسائله، ودعوة طلاب العلم والجماهير العربية والمسلمة إلى الاهتمام بالبلاغة والإقبال عليها، وليتهم ابتعدوا وأنصفوا، وإنما هاجموا البلاغة وحقروها وطالبوا بإلقائها في توابيت الجمود والإهمال والترك.

بينما انبرى فريق من الباحثين الجادين للدفاع عن علم البلاغة الذي يعد الأداة العليا لتبيين إعجاز البيان الحكيم، والذي كانت نشأته وغايته كشف ظواهر هذا الإعجاز وتبيين وسائله، ولا يخفى ما قام به أئمة الإعجاز من جهود لا يمكن تجاوزها في نشأة البلاغة وسعة آفاقها، ولا يسع المقام لذكر الأسماء والأسفار[٢].

واهتم فريق آخر ببيان عربية نسبة البلاغة، وأصالة نبتتها، وتحرير الأدلة المتنوعة منطقيا وعقليا ووجدانيا المثبتة عربية نشأتها، وضلالة رمية من لوثها بنسبتها إلى التراث الإغريقي أو اليوناني[٣]، ولا يسعنا إلا أن نشكر لهم هذا الجهد المنافح عن أصالة هذا العلم ونسبته العربية الإسلامية الخالصة.[٤]

---

١ تأصيل البلاغة–بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية/ الأستاذ الدكتور: عبد الملك بومنجل/ ١٣/ منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده/ جامعة محمد لمين دباغين–سطيف٢.

٢ ينظر/ البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم/ شفيع السيد/ دار الفكر العربي/ القاهرة ١٩٩٦م، ومفارقات النظرية البلاغية بين العرب والغرب –علاقة البلاغة بالمجتمع/ د. هنادي محمد بحيري/ ٥/ جامعة أم القرى.

٣ينظر/ مدخل في البلاغة العربية/ محمد حسن عبد الله/ مكتبة وهبة/ القاهرة ١٩٩٦م.

٤ سمات الدرس البلاغي بين الإمامين: عبد القاهر والسكاكي/ ٨٤٣، ٨٤٤.

البلاغة عربية وإسلامية:

من ثوابت هذا العلم الشريف أصالته العربية والإسلامية، حيث لا يملك أحد إنكار نشأة البلاغة العربية تحت راية القرآن الكريم يقول الدكتور/ مازن المبارك: (وهكذا نشأت البلاغة وترعرعت تحت راية القرآن والبحث في إعجازه... وهذا البحث هو الذي وصل بها إلى أن تصبح علماً مستقلاً يُخَصُّ بالتأليف، بل لقد ظلَّت البلاغة بعد نضجها واستقلالها أيضاً عالقة بفكرة إعجاز القرآن والدفاع عنها)[1].

وأثر القرآن الكريم في البيان العربي، وفي علوم العربية بصفة عامة، وفي البلاغة بصفة خاصة لا تخطئه عين فاحصة منصفة، وذلك بما أودع الله في كتابه الكريم من روعة الأسلوب، وبديع النظم، وأعلى درجات الفصاحة والبلاغة، ومن ثم كان علم البلاغة في المنزلة العالية بعد العلم بالله ﷻ، لكونه السبيل إلى الوقوف على إعجاز القرآن الكريم الذي خص بالإيجاز وحسن التأليف وبلاغة التراكيب وجمال بيانه وحسن بديعه[2]، ولأنه الرافد الأعظم للبيان العالي، وكانت آياته النموذج الأعلى في الاستنباط وحسن التوجيه، كما كانت المقياس البلاغي للنظر في النتاج الأدبي نثره وشعره، والموازنة فيما بينهما من سمات وخصائص.[3]

وقد اتفق أرباب هذا العلم على بيان فضيلته، وضرورة تحصيله، إما دفاعا عن القرآن بالتماس وجوه إعجازه، وإما لإشباع ما يعتمل في صدر المتدبر من

---

١ الموجز في تاريخ البلاغة/ ٤٨/ دار الفكر.

٢ ينظر/ كتاب الصناعتين–الكتابة والشعر/ أبو هلال العسكري/ ٧/ ت/ علي محمد البيجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ دار الفكر العربي.

٣ معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ ياقوت الحموي/ ١٩/ ١٥٨/ دار الفكر، بيروت–١٤٠٠–١٩٨٠.

جهة فهم معانيه الذي لا يدرك إلا بالتثبت من علم البلاغة ومقاصده[١]، وإما لتبيين أن ما جاء في البيان البشري من خصائص وجماليات موجود في البيان القرآني على وجه معجز وقف أمامه العرب الأوائل مشدوهين منبهرين[٢]. ثم تتابعت الدراسات البلاغية المرتبطة بالإعجاز القرآني الكريم.

أضحت البلاغة بارتباطها بالبيان القرآني الكريم وجهود علماء البلاغة والإعجاز علما له أسسه وقواعده وتعريفاته التي كانت قبل عبد القاهر رموزا وألغازا، ثم صارت جلية منطقية على يد السكاكي والخطيب القزويني، مما يكشف عن أصالتها، ونموها مرحلة بعد أخرى، ولكل مرحلة سماتها ومناهجها.

وهذه العلاقة بينها وبين البيان القرآني الكريم جعلها علما تربويا قابلا للتجديد والتطوير، مع حسن إفادة علماء كل جيل من البيان القرآني الذي لا ينضب معينه، ولا يتوقف عطاؤه، وهذا سر من أسرار تجلياتها في التفاسير التي يميل أصحابها إلى بيان الأسرار البلاغية.

البلاغة والتطور:

ومن ثوابت التراث العربي عامة، وعلوم البلاغة خاصة قابلية التجديد والتطور والدعوة إليها، فلم تتوقف العقول المؤسسة لعلوم العربية عن الدعوة إلى تدبر العلم وإعمال العقل وتغلغله في العلوم، لتكون عقول الخلف منتجة للمعرفة كعقول السلف، يقول ابن قتيبة: (إن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره)[٣]وهذه العبارة الماجدة

١ ينظر/ أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري/ محمد زغلول سلام/ ٢٠٦/ دار المعارف بمصر.

٢ ينظر/ البيان العربي–دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية/ د/ بدوي طبانة/ ٣٩ وما بعدها/ ط٢–مكتبة الإنجلو المصرية.

٣ الشعر والشعراء/ ٧/ دار إحياء العلوم/ ط٦/ بيروت–١٩٩٧م.

تدحض مدعي التنوير والحداثة الذين يزعمون جمود التراث وتوقفه، وأنهم وحدهم يحملون الدعوة للتجديد، وهذا ضرب من الزعم العابث بعقول المتلقين لهذا الإفك المبين، فالدعوة إلى التجديد والتحديث دعوة تراثية، دعا إليها ووصى بها أجدادنا المؤسسون.

والبلاغة من العلوم التي تمتلك أدوات التجديد الذاتي، فلقد بلغت تمامها من حيث التعريفات والتقسيمات والتقعيدات التي تساعد على الفهم والتحصيل، ومن ثم يمتلك الدارس أدوات التعبير عما يتذوقه من البيانين الكريمين، والبيان الإنساني العالي، وأصبحت هذه التعريفات والتقسيمات من الثوابت البلاغية الراسخة، وسماتها المكينة، التي جعلتها علما شامخا يؤدي دوره في الوقوف على معالم الإعجاز وتذوق الشعر والنثر إلى يومنا هذا.

ولم تبلغ هذه التعريفات والتقسيمات ذروتها عند السكاكي والقزويني فجأة، وإنما بدأت التعريفات تنمو في مؤلفات علماء الإعجاز والبلاغة مرحلة بعد أخرى إلى أن استقرت جلية دقيقة في مفتاح العلوم والتلخيص وإيضاحه. وهذا ما كان من شأن التقسيمات أيضا، فقد بدأت متداخلة إلى أن تمت واكتملت على يد السكاكي وشراح مفتاح العلوم، وهذا التطور المرحلي برهان على أصالة هذا العلم الشريف الذي ولد عربيا خالصا، ثم توالت مراحل نموه حتى بلغ تمام ثوابته في القرن السادس الهجري.

ثم أضحت هذه الثوابت بعد حين من الدهر سببا للهجوم على البلاغة التعليمية التقعيدية، حيث لا تتوقف الدعوات التي تتهم علوم البلاغة بالجمود والتحجر، والناس في ذلك فريقان: فريق يرفض أي فكرة تجديدية تجاه علوم البلاغة، وفريق يكافح وينابذ من أجل تنحية البلاغة جانبا، والإقبال على مناهج الأمم الأخرى، وإنزالها قسرا على تراثنا بخصوصياته، وقد وسموا بلاغتنا العربية بالبلاغة القديمة، ومنتجات الغرب كاللسانية والأسلوبية وآخرها التداولية بالبلاغة الحديثة، وفي صنيعهم تقليل من شأن بلاغة العربية والإسلام وظلم لهذا العلم

الشريف الذي ضاقت بعض العقول به ذرعا، تلك العقول المستهلكة للفكر لا المنتجة له وأصبحت وظيفتها البحث عن ثقافة وعلوم الآخرين للترجمة ومحاولة التطبيق على أرض غير الأرض ومجال غير المجال وقماش لا يشبه قماشهم.

والطريق الذي تراه الدراسة طريقا أعلى وأقرب رحما بعلوم العربية بعامة، وعلوم البلاغة بخاصة هو طريق الوسطية، الطريق الذي يدعو إلى المحافظة على ثوابت البلاغة وركائزها مع إعمال العقل وبذل الجهد في تطوير العلوم والارتقاء بها، والبحث عن جديدها الذي لا ينضب معينه، فما من علم إلا ويتجمد إذا لم يجد عقولا تتدبر مسائله، وتبحث عن أدفانه، لتضيف لبنات تناسب عصرها، يقول شيخنا العلامة الدكتور/ محمد محمد أبو موسى: (علومنا كتبت بمداد كل عصر لأن علماءنا كانوا يعيشون الزمن بكل تياراته، ولم أعرف منهم من ولَّى الحياة ظهره ولا عاش مطأطئ الرأس يتقمم هنا وهناك...، ولم أعرف علماء جيل طلبوا من تلاميذهم أن يتعلموا العلوم من تراث من سبقوهم وإنما قدموا لهم العلم وأغروهم به وفتحوا لشهواتهم به وأطعموهم ثم ارتدوا وهم معهم برفق إلى تراث من سبقوهم....

إن الجيل الذي نعلمه هو أشد الأجيال حاجة إلى ذلك لأنه يواجه مالم يواجهه جيل سابق في التاريخ كله، يواجه عوامل شرسة وطاغية ولها وسائل كثيرة تفصم بينه وبين علومه التي هي علوم أمته، وتفصم بينه وبين تاريخه)[1] فالحاجة أكثر إلحاحا في تقديم علوم البلاغة في ثوب جديد مشوق تأليفا أو تدريسا.

ويري الشيخ أن من الأسباب التي أطفأت توهج هذه العلوم في نفوس أبنائها ما قام به أعداء الأمة من الوسوسة إلى المسئولين بأن هذه العلوم تنشئ

١ خصائص التراكيب/ ١٨/ مكتبة وهبة.

الإرهاب وتفرخ التطرف، مما جعلهم يهملونها وينحونها جانبا، ومما زاد الأمر سوءا أن القائمين على أمر الثقافة والتعليم غالبا لا صلة لهم بهذه العلوم ولا بحضارة الإسلام وتاريخه[1].

ومن هنا يرى الشيخ أن الواجب يقتضي أن نراعي هذا الجيل، و(أنه من الخطأ الفادح أن نطالبه نحن بأن يتعلم النحو والبلاغة بلغة العصور الخالية،... لابد أن نكتب المعرفة لأبنائنا كتابة نغريهم بها ونفتح شهيتهم إليها)[2] وهذا أحد الميادين المهمة التي يجب أن تتوجه إليها الدراسات الحديثة بدراسة أقوم الطرق في تأليف البلاغة التعليمية المعاصرة، ووسائل تعليمها الحديثة.

إن نشأة البلاغة نشأة عربية خالصة جعلت منها مادة قابلة للتجديد تفصيلا أو اختصارا، وأفسحت الطريق للعقول الباحثة ذات النظر والتدبر، وللنفوس الحية أن تبصر حقائقها، وتهتك ستائرها، وتفض بكارتها، وتبرز ما أكنته العقول المؤسسة، وتظهر خبيئاتها للعقول المبصرة، فقد ترك السلف للخلف علما دفينا قد يفوق ما قالوه.

والحقيقة العلمية الثابتة في نشأة العلوم العربية والإسلامية مرحلة بعد أخرى، ونموها من عالم إلى آخر تجلى لنا حقيقة تجدد هذه العلوم كلما تدبرتها العقول المنتجة، فالبلاغة كانت قبل الإمام عبد القاهر مبثوثة في مؤلفات أهل العلم، وكانت بعض مباحثها رموزا وإشارات، فإذا به يغلغل فكره، ويخرج من هذه العموميات علما جليلا، يقول الإمام: (ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء. وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه

١ ينظر/ خصائص التراكيب/ ١٨.

٢ خصائص التراكيب/ ١٩.

فيخرج. وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبنى عليه)[1]

هذا النص الجرجاني يكشف لنا طريقة عمل هذه العقول الفذة المنشئة لعلوم العربية بصفة عامة، ولعلوم البلاغة بصفة خاصة، فهي تنفذ إلى الخبيء الذي قد يشار إليه تصريحا أو تلميحا، كما في تشبيه الإمام (كالتنبيه ...) ليقذف في روع قارئيه صفات هذه العقول الوثابة التي تبرز ما بين كلمات أهل العلم من علم خبيء بكر لم يظهر للناس بعد، وزيادة في تأكيد هذه السبيل أردف بقوله: (وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج)

جلي من حديثه أن في خبيء العلم ودفينه علما جديدا جديرا بأن يطلب ويبحث عنه، وأن هذا العلم هو الطريق الذي يجب أن يسلك لنيل المطلوب، وهو القاعدة التي يبنى عليه، والنص بهذا يقرر حقيقتين: الأولى أنه يرسم للباحثين طريق الدراسات البلاغية التي تضيف علما جديدا يطور علوم البلاغة ويحدثها، والثانية أن هذا الطريق سلكه الإمام فأسس من رموز السابقين وإشاراتهم علوم البلاغة العربية، فهو إذن طريق مجرب ومنتج ومهيأ لمن يريد المسير إلى الريادة والتميز.

وقد أكثر الإمام من الدعوة إلى أهمية التدبر وتدقيق النظر في كلام أهل العلم، فيقول: (إنك لا ترى نوعا من أنواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس، وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتلويح أكثر من التصريح، والأمر في " علم الفصاحة " بالضد من هذا: فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه، وجدت جله أو كله رمزا ووحيا، وكناية وتعريضا، وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر)[2] وبهذا التغلغل والتدقيق

١ دلائل الإعجاز/ ٣٤.

٢ دلائل الإعجاز/ ٤٥٥.

أخرج لنا الإمام نظرية النظم التي بلغت قمة عالية ما زالت تؤتي ثمارها إلى يومنا.

وعن الاستعارة يقول: (وفي الاستعارة علم كثير ولطائف معان ودقائق فروق.)[1] وهذا ما يحتاج إلى التدبر وشحذ الذهن وكده لنيل شرف إدراك هذه اللطائف والدقائق والفروق، ومن ثم تنفتح آفاق جديدة لعلوم البلاغة، وترتقي برقي العقول الفاحصة والمدققة.

يفهم من كلام الإمام عبد القاهر أن في علوم المؤسسين سبل تجديد وطرق تطوير علومهم، وأنهم تركوا لنا ركاز علم دفين يساعد عقول الأجيال القادمة على الإنتاج والتطوير بما يتسق مع عصرهم بكل مكوناته العلمية والأدبية والثقافية، واهتمامهم بفتح نوافذ لأجيال الأمة الناشئة نابع من إدراكهم حقيقة مهمة وهي أن هذه العلوم تمثل ثقافة الأمة وبناء عقولها وأنها الرباط الجامع للأمة، والمعين على تماسكها. ولما تعددت مشارب ثقافات أهل العربية ما بين مشرق ومغرب أصبحنا نشعر بخطر داهم، فللمشرقيين ثقافة ومناهج، وللمغرب العربي ثقافة ومناهج، وكأنهما أمتان لا أمة واحدة.

إذن التراث البلاغي يدعو إلى التجديد والتطوير والتحديث، وقد نبه مؤسسو هذا التراث إلى طرق التجديد ووسائله، بل قد تركوا علوما دفينة كفيلة بأن تبرز بلاغتنا العربية في ثوب جديد يتسق مع عصرنا بحداثته وتطوره ووسائله الحديثة.

ونستنتج مما سبق أن ثوابت علوم البلاغة تتمثل فيما يلي:

- أصالة علوم البلاغة ونشأتها العربية الخالصة.
- تطور نشأتها مرحلة بعد أخرى، وهذا ما يزيد عربيتها الخالصة تأكيدا، ويقطع الطريق على أي مشكك في ذلك.

---

١ دلائل الإعجاز/ ٤٥٠، ٤٥١.

- البلاغة العربية إسلامية النشأة، وأن علماء الإعجاز ضربوا بسهم وافر وأصيل في تطور علوم البلاغة واكتمال أركانها.
- قوة ركائزها الثابتة التي تجلت في النشأة العربية الخالصة والتعريف والتقعيد والتقسيم، تساعد على التجديد دون التفريط في هذه الثوابت، فلم تكن هذه الثوابت يوما عائقا، بل فتح الكثير من هذه القضايا أبواب دراسات غفل عن تطويرها الباحثون العرب حتى تناولها الغربيون وانبهر بهم الكثير من الباحثين العرب كقضية التواصلية والتداولية ورعاية مقتضى الحال ودور المخاطب في الإبداع وسنتناول ذلك في المبحث التالي.
- دعوة العلماء المؤسسين إلى التجديد وبذل الجهد وإعمال العقل في سبيل هذه التجديد، وضربوا نماذج رائدة في ذلك. وأن هذه الأصالة تفسح للفكر العربي المعاصر أبوابا للتحديث والتطوير.
- ارتباط البلاغة بالبيان القرآني والنبوي الكريمين، وعطاؤهما متجدد لا يتوقف ما دامت العقول المؤمنة تتدبر فيهما، ومن آثار هذا التدبر تتكشف مسائل بلاغية متعددة واسعة تحتاج من الباحثين جمعها من كتب المفسرين والشارحين للحديث والمقارنات بين ما استخرجوا منها، وسيكون ذلك فتحا كبيرا في مجال الدراسات البلاغية الحديثة.

وهذه الثوابت معينة على التجديد إذا أحسنا الإفادة منها، وبذلنا الجهد في التجديد في مساحة المتغيرات الواسعة في النظرية البلاغية المتكاملة، كالشواهد والتفاسير وشروح الحديث ذات الميول البلاغية، وكالتأليف المعاصر للمناهج التعليمية القائمة على منهج التيسير والتحليل الذوقي، والبحوث الموجهة لتناول الدروس التربوية التي تحمي الجيل وتنمي حاسة الذوق ومهارة التفكير، ومن ثم يرجع هذا الجيل مرة أخرى إلى ورود المعين الصافي، فينهل ثقافته ومناهج لغته وحضارة أمته من مواردها، فيصدر شامخا آمنا كريما.

ومن تمام القول في هذه المسألة أن كل محاولات الذين يدعون إلى هدم هذه الثوابت التي قامت عليها البلاغة العربية لم تؤت ثمارها، ولم تحقق هدفها، سواء تلك التي اتهمت السكاكي ومن نهج نهجه بتجفيف الدرس البلاغي وتحويله إلى قواعد معيارية ثابتة، أو الذين وسموا البلاغة العربية بالقديمة ودعوا إلى تنحيتها جانبا واستبدالها بالبلاغات الغربية الجديدة، وهم ثلة خدعوا ببريق الثقافة الغربية وسرابها، وشغلوا عن ميدان الدرس البلاغي العربي والإسهام في تطويره، ولم يقدموا جديدا إلا بث روح الانهزام في نفوس القارئين، وتشويه تراث الأمة الخيرة، والشوشرة على ميدان يساعد على الوقوف على إعجاز القرآن الكريم.

التداولية نشأة وتطورا:

من الثابت الذي تعرفه الدراسات اللغوية أن التداولية تعد المنهج الأحدث في الاتجاهات اللغوية التي ظهرت على ساحة الدرس اللساني الحديث فبعد المدارس الغربية المتعددة برزت التداولية وازدهرت واحتلت مكانة عالية في الدراسات الغربية وفي دراسات من تقمم على مائدتهم من الباحثين والنقاد العرب.

والتداولية منهج حديث لطريقة قديمة في التفكير، وهي ليست سوى تطبيق للمبدأ المشار إليه في الكتاب المقدس بعبارة (تعرفها بثمارها) وهي أصل دلالة البراجماتية على النفعية، وبدأت على يد سقراط، ثم تبعه أرسطو والرواقيون بعد ذلك... وبدأت في العقود الثلاثة الأخيرة دون طبيعة (غير تخصصية) تغذيها جملة من العلوم أهمها: الفلسفة، واللسانيات، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع[1]. ومن أهم روادها الذين يرجع إليهم الفضل في استحداث مصطلح

١ المنطق البراغماتي عند شارلز بيرس/ حامد خليل/ ١٩٦/ دار الينابيع- دمشق، وبلاغة الخطاب وعلم النص/ صلاح فضل/ ١٠/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت.

التداولية في الثقافة الغربية الفيلسوف الأمريكي (بيرس) ١٨٣٩- ١٩١٤م وموريس ١٩٣٨م[١]

وهي في مجملها تعني باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية، والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية والبشرية[٢]، أثناء الاستعمال التخاطبي، ويقسمها الباحثون إلى ثلاثة أنواع[٣]:

- التداولية اللفظية (لسانيات التلفظ): وتبناها شارل موريس وتعني بوصف العلاقات الموجودة بين المعطيات الداخلية للملفوظ وخصائص الجهاز التلفظي، أي (المتكلم والمخاطب وصفة الخطاب).
- التداولية التخاطبية: (نظرية أفعال اللغة) وتبناها جون أوستين وسيرل، وتعنى بالقيم التخاطبية المضمرة داخل الملفوظ والتي تسمح بالاشتغال كفعل لغوي.
- التداولية التحاورية: نتج تطورها عن استيراد الحقل اللساني للأفكار التي أسسها الأنثرولوجيون، وتشتغل بالحوارات، وهي تبادلات كلامية تقتضي خصوصيتها أن تنجز بمساعدة دوال لفظية[٤].

١ ينظر/ العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة-التأسيس والتجديد/ الزواوي بغورة/ ١٩٩/ عالم الفكر-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ مجلد٣٥/ عدد ٣/ الكويت مارس-٢٠٠٧م.

٢ التداولية من أوستين إلى غوفمان/ فليب بلانشيه/ ٦-١٨/ ترجمة/ صابر الحباشة/ دار الحوار للنشر والتوزيع/ ط١ ٢٠٠٧م.

٣ قضايا التداولية في التراث العربي-أفعال الكلام أنموذجا/ أ. زكور نزيهة، د. غيلوس صالح/ ١١٥/ عدد ٥/ مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب.

٤ التداولية في النحو العربي/ فيصل مفتن قاسم/ مجلة أبحاث ميسان/ ٧-٣٧/ مجلد ٢/ عدد ٤/ ٢٠٠٦م.

إشكالية التعريفات والترجمة:

ويعتبر من ثوابت التداولية البارزة أنها مصطلح ملبس ومربك لكل دارس يتناول هذا الاتجاه اللساني، حيث لا يمكننا أن نعثر على تعريف شامل لكل جوانبها، محدد لكل مناحيها، ومن أسباب ذلك: أن التداولية مبحث لساني غربي، والمباحث الغربية لا تستقر كثيرا، فقد جاءت اللسانية، واللسانية تنشطر إلى لسانية الجملة، واللسانية النسقية، ثم أبدلت بالأسلوبية، ثم البنيوية، ثم التفكيكية، ثم ظهرت البنيوية التكوينية، مما يجعل العقل الباحث لا يستقر في ميدان بحثي، واتجاه نقدي.

والسبب الثاني: أن التداولية نظرية لما يكتمل بناؤها بعد، ولا يمكننا وصفها بأنها مذهب نقدي مكتمل الأركان والحدود، ومن ثم يصعب توقع مستقبلها، وثبات مبادئها، والذي يتابع حركة الفكر النقدي الغربي يدرك أن مذاهبهم سريعة التغير لعدم اكتمالها كنظريات نقدية تحمل جينات قابلة للاستمرار والتطور والتجديد المواكب للحركة الأدبية المعاصرة، فالقابلية للاستمرارية ليست ثابتا من ثوابتها، على عكس ما تمتلكه البلاغة العربية من أسس وثابت ضمنت لها الاستمرارية والقابلية الذاتية للتطور والتحديث.

السبب الثالث: لأنها منهج تتقاذفه مصادر معرفية عديدة، فكل مبدأ من مبادئها الكثيرة منسول من مصدر يرجع إليه، ورافد يصدر عنه [1]، ومن هنا تعددت تعريفاتها ومناهجها وتداخلت مع كثير من العلوم الأخرى، مما جعل كل باحث يهتم بالجانب الذي يخصه، فمن الباحثين من تناولها من جانب المعنى في سياقه، ومنهم من يعنى بجانب اللفظ وأثره في الخطاب، ومنهم من يعرفها

١ ينظر/ في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم/ خليفة بوجادي/ ٣٦/ بيت الحكمة والنشر الجزائر/ ط١- ٢٠٠٩م، والتداولية عند العلماء العرب-دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي/ مسعود صحراوي/ ١٧/ دار الطليعة للطباعة والنشر/ بيروت ط١ ٢٠٠٥م .

من وجهة نظر المرسل[1]. مما جعل البعض يشكك في اختصاصها اللساني، ويرى بأنها حقل لساني ملتبس، وأن التباساته تظهر فيما يجده المتابع لتطور الدراسات اللسانية المعاصرة من صعوبة في معرفة الحدود الفاصلة بين المجالات اللسانية المعروفة وبين مجالات التداولية، ومن ثم لا يمكنه تحديد موضوع التداولية وتوجهاتها، وإبراز نماذجها النظرية وأدواتها الإجرائية.[2]

ولم تكن الصعوبة في إيجاد تعريف شامل للتداولية فحسب، وإنما تبرز مشكلة أخرى في الترجمة العربية للتداولية، وهي ظاهرة عشوائية في حركة الترجمة للمصطلحات الخاصة بالتداولية، فمنهم من يترجم المصطلح الأجنبي(pragmatics) بالتداولية، أو بالاتصالية، أو بالنفعية، أو بعلم الرموز، أو بالذريعات، أو بالذرائعية الجديدة، أو بعلم التخاطب، أو بعلم الاستعمال اللغوي، أو بالترجمة الحرفية (البراجماتية) وانتقلت هذه العشوائية إلى أبعادها، كبُعد الأفعال الكلامية وبُعد الإشاريات[3].

١ ينظر/ بين البلاغة العربية والتداولية/ بن زروق سامية/ ٢٥٦، ٢٥٧/ مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية/ مجلد١/ عدد١/ ٢٠١٣م.

٢ التداولية واللسانيات/ عادل الثامري/ مجلة دروب مقال في ١٩ /٥/ ٢٠٠٦م.

٣ ينظر/ دليل الناقد الأدبي/ ميجان الرويلي، وسعد البازغي/ ١٠٢/ المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء/ ط٢- ٢٠٠٠م، والوظائف التداولية في اللغة العربية/ أحمد المتوكل/٥/ الدار البيضاء- ١٩٨٥م، والاقتضاء في التداول اللساني/ إدريس مقبول/ ١٤١/ عالم الفكر/ مجلد٢٠/ عدد٣/ الكويت، ١٩٨٩م، والتداولية عند العلماء العرب/ مسعود صحراوي/١٥/ دار الطليعة/ ط١- بيروت- ٢٠٠٥م، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة/ نعمان بوقرة/ ١٦٠، ١٦٢/ عالم الكتب الحديث/ ط١/ الأردن- ٢٠٠٩م، المشيرات المقامية في اللغة العربية/ نرجس باديس/ ٤/ مركز النشر الجامعي/٢٠٠٩م.

مصطلح التداولية:

وإذا كانت التداولية هي الترجمة الأكثر انتشارا فإنها في العديد من معاجم اللغة ترجع إلى المادة (دول) ولها معان عديدة، يقول ابن فارس: (اندال القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض)[1] ويقول الزمخشري: (دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكثرة لهم...والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم)[2] وبهذا يكون المعنى دائرا بين التنقل والتحول والتبدل، وتكون التداولية دالة على التواصل والتفاعل[3].

ويعد الباحث المغربي طه عبد الرحمن رائد التداولية التي غزت الفكر العربي، فهو أول من استعمل مفهوم المجال التداولي في ترجمته للمصطلح الغربي(pragmatique)، ويقول عن أفضلية هذه الترجمة: (إني وضعت هذا المصطلح – يعني التداولية – منذ سنة (١٩٧٠)، في مقابل (pragmatique) ولو أن التداوليين الغربيين علموا بوجود هذه اللفظة في العربية لفضلوها على لفظة (pragmatique)، لسبب واحد، وهو أنها لا توفي بالمقصود من علم التداول، فلفظة التداول تفيد في العلم الحديث الممارسة... وتفيد أيضا التفاعل في التخاطب... ثم بالإضافة إلى ذلك أنها من مادة واحدة ولفظة الدلالة نفسها، يعني أن التداول سوف يرتبط بالدلالة، فإذن هذا هو التبرير العلمي الأولي

١ مقاييس اللغة/ أحمد بن فارس/ مادة دول/ ج٢/ ٣١٤/ دار الفكر/ ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م
٢ أساس البلاغة/ الزمخشري/ ج١/ ٣٠٣/ ت/ محمد باسل عيون السود/ دار الكتب العلمية ط١/ بيروت ١٩٩٨م،
٣ ينظر/ تجديد المنهج في تقويم التراث/ طه عبد الرحمن/ ٢٤٤/ المركز الثقافي العربي/ ط٢/ الدار البيضاء.

لمصطلح التداول)[1] وقد نالت هذه الترجمة إعجاب الكثيرين من رواد التوجه الثقافي الغربي، وتابعوه في استعمال هذا المصطلح.

ومع وجاهة اختيار هذا المصطلح والتعليل المنطقي له، إلا أن هذه الترجمة تعد تحريفا لدلالة المصطلح المترجم الدال على الذرائعية أو النفعية الغربية، وقد اعترف المترجم نفسه في بيانه السابق بهذا التحريف.

ولا يخفى أن ثمة علاقة بين علم اللغة البراغماتي وبين المذهب الفلسفي البراغماتي، الذي نشأ يونانيا ثم انتقل إلى اللاتينية ثم تلقفته الفلسفة الغربية (الأمريكية) التي تعد أهم رافد للتداولية[2]، فالتداولية ما هي إلا امتداد لتأثير العقيدة الفلسفية الغربية، ودراسة لسانية بمفهوم غربي للحياة والكون، فهي كانت وما زالت مرتبطة بوجه ما بالمسار الفلسفي، (حيث تشير الدراسات التي عنيت بنشأة التداولية إلى أنها وليدة الفلسفة الذرائعية أو البراغماتية في الحقل الفلسفي)[3] وهي تتخذ من القيمة العملية التطبيقية قياسا للحقيقة، معتبرة أن الحقيقة المطلقة غير موجودة، وأنه لا شيء حقيقي إلا كل ما له منفعة، وبهذا تتسق مع اسمها البراجماتية.

والعقول العربية المستهلكة للفكر الغربي لا تتحمل عناء الدرس البلاغي العربي وحاجته إلى التدبر وإطالة النظر، لاستخراج ما اشتمل عليه من قضايا ومقاصد وأفكار جليلة القدر عظيمة النفع، فلما برزت بعضا منها في علوم غربية كالتداولية تلقفتها أقلامهم وأشاعوها في أوساط الباحثين العرب وجامعاتهم،

١ الداليات والتداوليات/ طه عبد الرحمن/ ٢٩٩/ البحث اللساني والسيميائي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس/ ط١- المغرب، ١٩٨٤م.

٢ ينظر/ التداولية نشأة وتطورا/ سحالية عبد الكريم/ ٨٨/ مجلة المخبر/ قسم اللغة العربية- جامعة بسكرة.

٣ التداولية والتواصل في الفلسفة التحليلية الغربية المعاصرة/ د/ فريد لعبيدي/ ٣١٨/ مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية/ مجلد١٠/ عدد٣/ ٢٠٢٢م.

بدعوى الحداثة ومواكبة العصر، وفي الحقيقة ما هي إلا انهزام ثقافي في نفوسهم.

وتأثير الانهزامية الثقافية أمام الثقافة الوافدة ونشرها بهذه الصورة وتداولها في الدراسات العربية والإسلامية أمر خطير على الأجيال الناشئة، التي ستنبطح هي الأخرى أمام كل وافد، ولن تفرق بين الدراسات اللسانية والدراسات الفلسفية المعاكسة لثقافتنا وعقيدتنا الإسلامية.

والنظرية التداولية تشتمل على العناصر الآتية:

الأول: **المُرسِل:** وهو الأهم لكونه الطرف الذي يوجه كلامه إلى الطرف الثاني، لتكتمل العملية التخاطبية، بغرض إفهامه أو التأثير فيه.

الثاني: **المرسل إليه**، وهو الطرف الثاني في العملية التخاطبية، وهو يمارس دورا غير مباشر في صياغة الخطاب الذي يحرص المرسل على أن يكون مناسبا لحاله.

الثالث: **السياق:** وهو الإطار العام الذي يساعد على عملية الإفهام بين طرفي الرسالة الخطابية.

الرابع: **الخطاب:** وهو ثمرة العناصر الثلاثة السابقة، ففيه تبرز الأدوات والآليات الخطابية المنتقاة، وبتتبع خصائص الرسالة يمكننا الوقوف على الكيفية التي قصد إليها المرسل، الإجلال والإكرام، أم الإهانة والتحقير[1].

ومن قضايا التداولية المشهورة:

قضية الأفعال الكلامية: ويقصد بها (أن كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل

١ ينظر/ بين البلاغة العربية والتداولية/ ٢٥٩.

أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية تضفي ردود فعل المتلقي)[1]، فالتكلم بأي لغة ينتج عنه فعل لغوي أو أكثر.

متضمنات القول: ويراد بها ما يتضمنه الكلام من معان لم يصرح بها المتكلم لظروف تمنعه من التصريح بها، وقد يكون المانع مجتمعيا، كالعادات والتقاليد، أو دينيا، أو سياسيا، ويؤثر هذا على اللغة باعتبارها وليدة مجتمعية[2].

الاستلزام الحواري: ويقصد به أن (معنى جمل اللغات الطبيعية إذا روعي ارتباطها بمقامات إنجازها لا ينحصر فيما تدل عليه صيغها الصورية من استفهام وأمر ونهي ونداء إلى غير ذلك من الصيغ المعتمدة في تصنيف الجمل)[3]فللجملة معان وأغراض تواصلية مستلزمة عنها تتجاوز حدود صيغها المشكلة منها[4].

الإشاريات: وهي الكلمات والتعبيرات المبهمة التي لا يتحدد مدلولها، ولا يمكن تفسيرها بمعزل عن السياق الذي وردت فيه، كالضمائر وأسماء الإشارة وبعض ظروف الزمان والمكان[5].

---

١ التداولية عند العلماء العرب–دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي/ مسعود صحراوي/ ٤٠/ دار الطليعة / بيروت ط١– ٢٠٠٥م.

٢ ينظر/ تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية/ عمر بلخير/ ١١٢/ منشورات الاختلاف/ الجزائر/ ط١–٢٠٠٣م.

٣ دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي/ أحمد المتوكل/ ٩٣/ دار الثقافة للنشر والتوزيع– الدار البيضاء/ ط١–١٩٨٦م.

٤ ينظر/ الملازمات بين بين المعاني في مفتاح العلوم للسكاكي–مقاربات تداولية في ضوء نظرية الاستلزام الحواري/ باديس لهوميل/ ٣٠/ مجلة الدراسات اللغوية والأدبية/ ٢٠١٣م.

٥ ينظر/ تداولية الإشارة عند نزار قباني–قصيدة منشورات فدائية/ د/ ضيف عبد المنعم الفرجاني/ ١٣٥/ مجلة الدراسات العربية/ كلية دار العلوم– جامعة المنيا.

ويستنتج مما سبق أن التداولية منهج غربي قديم جديد، ولد من رحم دراسات سابقة فاضت بها مائدة الثقافة الغربية حتى تزاحمت، وكلما جدت نظرية قذفت بالأخرى من على المائدة، وهذا يعني أن الفكر الغربي كثير التغير بلا ثوابت تنطلق منها هذه النظريات المتلاحقة، فحينما رأوا في دراسة استعمال اللغة (البنيوية) مذهبا جاءت التداولية مغايرة لها[1] وما تزال قيد البحث والدراسة، ولم تكتمل بعد.

وظاهر لا يخفى أن نظرية التداولية لا تبدو لها ثوابت واضحة يقام عليها درسها، لكثرة تعريفاتها وفق التوجه التخصصي لكل باحث، وعشوائية حركة الترجمة التي تناولت مصطلحها الأجنبي، مما يفقدها الأصالة التي تعين على الفهم والاكتساب ثم التطبيق، وهذا مما يجعلها في كفة أخف وزنا إذا ما قورنت بالبلاغة العربية ذات الأصالة المنهجية العريقة والثوابت المستقرة منذ عشرات القرون، وهي ثوابت تسهل دراستها، وتيسر اكتسابها.

١ ينظر/ التداولية مقدمة عامة/ خلف الله بن علي/ ٢٢٦/ مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب/ مجلد ١٤/ عدد ١/ ٢٠١٥م.

المبحث الثاني: التواصلية بين البلاغة والتداولية.

التواصلية البلاغية:

تعد التواصلية أهم ثابت بلاغي بعد أصالة نشأتها العربية والإسلامية الخالصة، وتتجلى تواصليتها في جميع الدرس البلاغي ومباحثه، والتي تتمحور حول مقاصد المتكلم وأحوال المخاطب، وما سميت البلاغة بهذا الاسم إلا لبيان الوظيفة الرئيسة لها، وعلماء البلاغة المؤسسون كانوا بالغي الدقة في اختيار مسمياتهم للعلوم أصولا وفروعا، حيث نجد المعنى اللغوي منبئا عن المعنى الاصطلاحي وممهدا له في العقل؛ ليلج إلى العلم المقصود بهذه الدلالة اللغوية المصحوبة مع المعنى الاصطلاحي. وتسمية هذا العلم الشريف بالبلاغة خير دليل.

فالبلاغة لغة: تعني الوصول إلى الشيء والبلوغ له، يقول ابن منظور: (بَلَغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغا وبَلاغا: وصَلَ وانْتَهَى، وأَبْلَغَه هو إِبْلاغا وبَلَّغَه تَبْلِيغا، ... وتَبَلَّغَ بالشيء: وصَلَ إِلى مُرادِه، وبَلَغَ مَبْلَغَ فلان ومَبْلَغَتَه. ... البَلاغُ: ما يُتَبَلَّغُ به ويُتَوَصَّلُ إِلى الشيء المطلوب)[1] وهذا توجيه دقيق إلى الوظيفة الرئيسة للبلاغة، وهي التواصلية بين طرفي الرسالة، المتكلم والمخاطب، وهذا المعنى اللغوي المقصود لا يغيب عن منهج البلاغة أصولا وفروعا.

وجاء تعريف البلاغة اصطلاحيا منبثقا من دلالة المعنى اللغوي، فيقول أبو هلال العسكري: (البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن)[2] وفي التعريف تركيز على المتكلم الذي يحمل رسالة إلى مخاطب، وقد جعل بلاغته في قدرته على

---

١ لسان العرب/ ابن منظور/ مادة/ بلغ/ دار صادر.

٢ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر/ أبو هلال العسكري/ ١٠/ ت/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ مطبعة/ عيسى البابي الحلبي.

إيصال المعنى إلى قلب المخاطب وتمكينه في نفسه كما هو متمكن في نفسه، وهو قول قاطع في إبراز مهمة البلاغة وإظهار وظيفتها بكل وضوح وتأكيد منذ مئات السنين.

وأما الإمام عبد القاهر فيحدد وظيفة البلاغة من خلال تعريفه للنظم بأنه (عبارة عن توخي معاني النحو في معاني الكلم)[1] وقصد بمعاني الكلم الأغراض التي يصاغ لها الكلام[2]. وقد وردت كلمات ذات مكانة رئيسة في نظرية النظم وهي (وجوه/ فروق/ معاني الكلم) يلزم مراعاتها ليؤدي النص مهمته انطلاقا من مراعاة أغراض المتكلم وأحوال المخاطب.

وقد تجلت التواصلية في نظرية النظم مما جعلها ميدانا ثريا ووجهة رئيسة للدروس والبحوث اللسانية لكثير من الدراسين حسب مجال تخصصاتهم، وذلك لأن العقلية الجرجانية الفذة نفذت إلى روح التراث العربي في عصوره المختلفة واستنطقت نصوصها ووقفت على ظواهرها وخصائص أساليبها بغية الوصول إلى إعجاز البيان القرآني الكريم، وقد أثرت نظريته الفكر المعاصر الذي اتفق معها كلها أو في بعض جوانبها[3].

وقد انتهى تعريف البلاغة إلى السكاكي ثم إلى الخطيب القزويني الذي عرفها بقوله: (بلاغة الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)[4] ومقتضى الحال مختلف لتفاوت المقامات، (فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل،

١ دلائل الإعجاز/ ٣٦٢/ ت/ محمود شاكر/ مكتبة وهبة.

٢ الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع/ الخطيب القزويني/ ٢٠/ دار الكتب العلمية/ بيروت لبنان/ ط ١/ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣ ينظر/ في البلاغة العربية/ محمود أحمد نخلة/ ٣٤.

٤ الإيضاح/ ٢٠ .

ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي)[1] واختلاف المقامات يتسع لكل ما يستجد في العصور واختلافات عادات مجتمعاتها وثقافاتها، ويقرر الخطيب بأن (ارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاطه بعدم مطابقته له. فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب)[2]

لقد حرص علماء البلاغة المؤسسون على أن يبينوا وظيفة البلاغة من خلال معناها اللغوي، ومن تعريفاتها بأنها التواصل القائم على مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن لكل مقام مقالا، وأن علو الكلام وحسنه مرهون بالتبليغ الذي يراعي غرض المتكلم وحال المخاطب.

التواصلية هي وظيفة البلاغة العربية وثابت من ثوابتها التي يجب ألا تغيب عن الدراسين سواء في الدراسات النظرية للبلاغة أصولا وفروعا، أو في المجال التحليلي التعليلي، ولو تاهت التواصلية وغابت عن مداد البلاغي فقدت البلاغة وظيفتها في التنظير والتحليل. وهذا باب تقاعست عنه الدراسات العربية الحديثة واجتهدت فيه العقول الغربية وأنتجت الاتجاه التداولي في الدراسات اللسانية الحديثة، وانبهرت به كثير من العقول العربية ذات الهوى الغربي، وكان الأولى أن تتوجه هذه العقول المستغربة إلى إبراز هذه الوظيفة البلاغية والعمل على تطبيقاتها في مناهج وأساليب عصرية مناسبة للتطور الفكري والتفني المعاصر.

وإجمالا ترى الدراسة أن علوم البلاغة الثلاثة تضافرت على تحقيق الغاية التواصلية الظاهرة في الدرس البلاغي على وجه العموم، إلا إنه يظهر بصورة أوضح في مباحث علم المعاني على وجه الخصوص، ولا يخفى ذلك عمن

١ الإيضاح/ ٢٠.
٢ الإيضاح/ ٢٠.

يمارس البلاغة اكتسابا أو توصيفا أو تحليلا، لخصوبة مباحث علم المعاني وتجلياته تفاعلا وتواصلا، ونتوقف في هذا السياق أمام تعريف علم المعاني الكاشف عن هذه الخصيصة الرئيسة لهذا العلم الشريف، فقد عرفه الخطيب بأنه: (علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)[1]

وتضمن تعريفه أمرين: أولهما صورة اللفظ المخصوصة كالتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وثانيهما مطابقة هذه الصورة المخصوصة مقتضى الحال، فالحال أو المقام أو الموقف يختلف من مقام إلى مقام، فمقام الفرح والسرور غير مقام الحزن والضيق، ومقام الذم غير مقام المدح، ومثال ذلك قوله جل وعلا: **(وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)** الجن/ ١٠، حيث جاء الفعل (أراد) مرتين، الأول (أريد) مبنيا لغير فاعله مع الشر، والثاني (أراد) مبنيا للمعلوم، وسر اختلاف صورة الفعلين فيما قبل (أم) عما بعدها هو رعاية مطابقة الحال الداعية إلى حسن التأدب مع الله تعالى بنسبة الخير إليه، ومنع نسبة الشر إليه جل وعلا، يقول ابن كثير: (وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل)[2]

البلاغيون يرون أن لكل مقام مقالا له صورته الخاصة التي تختلف بحسب المقام (وما إذا كان يتطلب هذه الكلمة أو تلك وهذا الأسلوب أو ذاك من أساليب الحقيقة أو المجاز والإخبار أو الاستفهام وهلم جرا ومن عباراتهم الشهيرة في هذا الصدد قولهم: (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) ...ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة (المقام) متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي (المقام) و(المقال) باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى

١ الإيضاح/ ٢١.

٢ تفسير القرآن العظيم/ج٨/ ٢٤٠/ ت/ سامي بن محمد السلامة/ دار طيبة للنشر والتوزيع/ ط١/ ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة)[1].

وأزعم أن كلمة الاعتراف غير دقيقة، لأن البلاغيين أسسوا علومهم باستقراء التراث العربي الثري، واستنبطوا قواعدهم بتدبرهم في ظواهر ما وصلهم من التراث وخصائصه، فليس صنيعهم اعترافا وإنما تأسيسا وإنتاجا لمعرفة خصبة منسولة من مادة لغوية ثرية، منها المقدس الكريم، ومنها الإنساني البديع.

وعلم البيان يوفر صورا بيانية تؤدي دورها التواصلي رعاية لمقتضى الحال بين المتكلم والمخاطب، فهو كما عرفه الخطيب (علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة)[2] فهو يبحث في الطرق المختلفة المبينة عن المعنى، ووسائل التأثير في المخاطب كالتشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية. والمتكلم ينبغي أن يختار الصورة البيانية التي توضح مراده وتؤكده في نفس المتلقي.

والكناية–كمثال–تبرز التواصلية كوظيفة رئيسة في الصور البيانية، ففيها يتجلى دور المتكلم والمخاطب معا، فالمتكلم ينشئ الصورة الكنائية، ابتعادا منه عن التصريح بما يقصده من معنى أيا كان سبب تفاديه المعنى المباشر، ثم يأتي دور المتلقي للكناية في استعمال ذكائه وفطنته لفهم دلالات الكناية، ولذلك يرجع الإمام عبد القاهر الجرجاني مزيتها عن التصريح إلى قدرتها على إثبات المعنى وتقويته، فيقول: (ليس المعنى إذا قلنا: «إن الكناية أبلغ من التصريح»، أنّك لمّا كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشدّ. فليست المزيّة في قولهم: «جمّ الرماد»، أنه دلّ على قرى أكثر،

١ اللغة العربية معناها ومبناها/ تمام حسان/ ٣٣٧/ عالم الكتب–القاهرة ط٤ ٢٠٠٤م
٢ الإيضاح/ ١٦٣.

بل أنّك أثبتّ له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجابا هو أشدّ، وادّعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحّتها أوثق)[1]

وبذلك تكون الصورة البيانية وسيلة تواصلية بين الطرفين المنشئ لها والمستقبل، حيث توفر لهما وسيلة تأثيرية إقناعية تظللها المتعة الفكرية التي يحاول من خلالها المتلقي الوقوف على زوايا المعنى وحدوده وظلاله التي تمتد امتداد المعنى في نفس قائله.

كما أن علم البديع يحتفي أيضا بالتواصلية كوظيفة بلاغية مؤثرة، ووظيفته مزدوجة متداخلة متآزرة، منها المعنوي للإيضاح والتوكيد، ومنها اللفظي تحسينا وتنغيما وتطريبا، وفي التوضيح تحسين للكلام وتزيين له، ويتبع تحسين اللفظ تحسين للمعنى وتأكيد له، ولا شك في أن تحسين الكلام يؤدي إلى تحسين وقع المعنى في نفس المخاطب وتمثله له، وبذلك يقوى التواصل الفعال بين الملقي والمتلقي.

يتضح لنا من هذا التناول لتعريف البلاغة وعلومها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) أن الوظيفة الرئيسة للبلاغة العربية هي إيصال المعنى إلى المخاطب وتأكيده في نفسه باعتبار غرض المتكلم وحال المخاطب، مما يبرز شموخ بلاغتنا العربية والإسلامية وشمولها وأصالتها ووظيفتها التواصلية.

وتستحق فكرة المقام والمقال والمتكلم والمخاطب شيئا من التفصيل، لكونها الفكرة التي أبهرت المتغربين من الباحثين في التداولية، وجعلت الكثير من الأدباء والنقاد والبلاغيين يبحثون عنها في التراث البلاغي، ليصلوا إلى نتيجة مفادها أن التواصلية التي اهتمت بها التداولية لها تمظهرات في البلاغة العربية، ودورنا هنا أن نجلي الحقيقة العلمية التي تقرر أن وظيفة البلاغة العربية تواصلية، وأنها فكرة رئيسة فيها تبرق وراء كل مبادئها ومباحثها:

---

١ دلائل الإعجاز/ ٧١.

المقام أو الحال والوظيفة التواصلية:

ظاهرة المقام أو الحال من القضايا الرئيسة التي أسست عليها البلاغة العربية، وكانت وما زالت عاملا مهما في استمرارية التناول البلاغي لأحوال المخاطبين وما يتسق مع هذا الحال من اعتبار مناسب بإيراد العبارة على صورة مخصوصة. وهي الفكرة التي قالوا عنها (لكل مقام مقال) بهذا الجناس الناقص اللافت للنظر، والمطرب للأذن كي تقبل النفس على هذه العبارة القليلة المبنى الكثيرة المعنى.

وهي فكرة بدأت مع بداية الدرس البلاغي، ومن أول من أشار إلى هذه الفكرة البلاغية عند العرب بشر بن المعتمر في رسالته، فيقول: (والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال)[1] وهي إشارة مختصرة ومعبرة، تبرز حقيقة شرف الكلام في كونها موافقته للحال وتحقيق المقصد الذي قصد إليه المتكلم.

ثم تناولها البلاغيون المؤسسون بحثا ودراسة منذ الجاحظ مرورا بالإمام عبد القاهر إلى أن بلغ هذا الاهتمام الدرس البلاغي التقعيدي في مفتاح العلوم، وظل تابعو المدرسة السكاكية يوسعون مجالاتها (البحثية طولا وعمقا، طولا بالإضافات والتحليلات، وعمقا بالشروح والتفصيلات والتعليلات)[2] ومنها مراعاة المقام، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وجلَّى البلاغيون ماهية المقام وأهميته ووظيفته والإجراءات التي يجب أن تتحقق لتؤدي التواصلية البلاغية دورها في تقرير المعاني وتحقيقها، فما البلاغة إلا رعاية مقتضى الحال، يقول محمد العمري: (كثيرا ما ارتبط المقام في البلاغة

---

١ البيان والتبيين/ ١/ ١٣٦.

٢ البلاغة العربية قراءة أخرى/ محمد عبد المطلب/ ٢١/ لونجمان مصر/ ط١ ١٩٩٧م.

العربية بزيادة شرح وتحديد، وذلك بالحديث عن أقدار السامعين ومقتضى أحوالهم، فبمثل هذا التوضيح نرتبط ارتباطا مباشرا بالخطاب الإقناعي، وهو الخطاب المقامي بالمفهوم الضيق والمحدد للمقام. ولإجلاء الصورة، نشير مبدئيا إلى أن المقام يضيق حتى يقتصر على مراعاة حال المخاطب في لحظة محددة معلومة سلفا للمخاطب، ويتسع حتى يسع المجال أو الإطار الحضاري المشترك بين الناس عامة أو داخل نسق حضاري ذي طابع متميز)[1]

وارتبطت فكرة المقام أو الحال فيما بعد بالحالة النفسية والمزاجية للمتكلم، يقول ابن رشيق القيرواني: (لكل مقام مقال: وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده، وأمور ذاته–من مدح وغزل ومكاتبة ومجون، وخمرية وما أشبه ذلك–غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين)[2]وهذا تطور في الفكرة، وتوسعة لها، فبعد أن كانت مرتبطة بالمتلقي، أصبحت تشمل أيضا رعاية المتكلم لحالته النفسية، وما تتطلبه من إيراد الكلام مصورا لهذه الحالة الوجدانية.

للمقام–إذن– سلطة مهيمنة على النص، وقد فطن البلاغيون إلى أهمية رعايته وما يتعلق به من أركان العملية الإبداعية كالمتكلم والمخاطب، وتبرز هذه السلطة الغالبة في التناول البلاغي للخبر وأضربه وخروجه على خلاف مقتضى الظاهر، يتحدث السكاكي عن اختلاف المقامات، فيقول: (لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذم ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب،

١ نظرية الأدب في القرن العشرين/ محمد العمري/ ١٢٢/ أفريقيا الشرق– المغرب/ ط٢/ ٢٠١٤م.

٢ العمدة في محاسن الشعر وآدابه/ ابن رشيق القيرواني/ ١/ ٢٠٨/ ت/ محمد عبد القادر أحمد عطا/ دار الكتب العلمية/ ط٢/ ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م، وينظر/ منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ حازم القرطاجني/ ٣٥٦ وما بعدها/ ت/ محمد الحبيب بن الخوجة/ دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان/ ط٣/ ١٩٨٦م.

ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل)[1] وكل مقام يتطلب رعايته بإيراد الكلام على وجه مخصوص.

ثم يذكر اختلاف خصوصيات التراكيب بناء على درجات إيراد الخبر المناسب لحال المخاطب ابتداء أو إنكارا: (وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام، بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار؛ جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر)[2]

والعبرة في حسن الكلام وارتفاع شأنه أن يساق في صورة مخصوصة مناسبة لكل حالة عليها متلقي الخبر (وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحلّيه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة)[3]

ولم يكن السكاكي أول من تناول قضية الخبر وأضربه بالبيان، وإنما هي فكرة نشأت مع بدايات نشأة علوم العربية، فقد ذكر الإمام عبد القاهر الجرجاني ما جاء في رواية أبي إسحاق الكندي مع أبي العباس المبرد، حيث ظن الكندي أن ثمة حشوا في قولهم: عبد الله قائم– إن عبد الله قائم – إن عبد الله لقائم. والمعنى –في ظنه– واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم: "عبدُ الله قائمٌ"، إخبار عن قيامه وقولهم: "إن عبد الله قائمٌ"، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ وقولهم: "إنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ"، جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ قيامَهُ،

١ مفتاح العلوم/ ١٦٨.
٢ مفتاح العلوم/١٦٨.
٣ مفتاح العلوم/١٦٩.

فقد تَكرَرَّت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني[1]. فالمعاني مختلفة بحسب قصد المتكلم وحال المخاطب، واقتضى ذلك سوق الكلام في صورة مختلفة. مما يجعل البلاغة ميدانا خصبا للتواصلية، وأسلوبا مثيرا لعنايتها بأحوال المخاطبين وبوسائل إقناعهم، لذلك كان (عبد الله قائم) موجها لخالي الذهن، و(إن عبد الله قائم) للمتردد تجاه القضية، و(إن عبد الله لقائم) معني بالمنكرين لها.

وتجدر بنا في هذا السياق أن نلفت النظر إلى أن علم البيان تتغير صوره البيانية في سياقها لدرجة أن (معنى واحدا يستطاع أداؤه بأساليب عدة وطرائق مختلفة، وأنه قد يوضع في صورة رائعة من صور التشبيه أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو الكناية)[2] والداعي الذي اقتضى مجيء صورة التشبيه مثلا دون الاستعارة أو الكناية كمقصد المتكلم وغايته وحال المخاطب، فلكل مقام مقال يتسق معه ويختص به.

المتكلم والوظيفة التواصلية:

المتكلم هو الذي يسجل تصوراته وخواطره ومشاعره في صورة بيانية معبرة عما تعالجه النفس، وقد مر بنا تعريف الخطيب للبلاغة بأنها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) وتقتضي هذه المطابقة أن يكون المتكلم ذا وعي بلغته مفردات وتراكيب ذات خصوصية، ووعي بالمقام الذي يتحدث فيه، مما يشكل في وعي المتلقين لهذا العلم الشريف صورة للدور العلي للمتكلم، وإذا استحضرنا قول أبي هلال العسكري السابق الذكر عن سبب تسمية البلاغة بهذا الاسم: (لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه)[3]فإننا ندرك أن سر نجاح المتكلم هو إيصال المعنى الذي قصد إليه إلى قلب السامع واضحا فيفهمه.

---

١ دلائل الإعجاز/ ٣١٥.

٢ البلاغة الواضحة–المعاني، البيان، البديع/ علي الجارم، ومصطفى أمين/ ص٧/ دار الفكر– بيروت –لبنان ٢٠٠٩م.

٣ الصناعتين/ ٦.

ويصف البلاغة بقوله: (قول مفقه في لطف، فالمفقه: المفهم، واللطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستعصية، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجة)[1] فوظيفة البلاغة أن يعمد المتكلم إلى إفهام المخاطب وإقناعه بما يريد، ولا يتحقق ذلك إلا إذا راعى حال مخاطبه، ليتوجه إليه بما يستطيع فهمه، فلا يخاطب العامة بكلام الخاصة، و(ينبغي أن يتكلم بفاخر الكلام، ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه عنه، ويقبله منه)[2]، ونلحظ أنه لم يكتف بالإفهام، وإنما اشترط (قبول المخاطب ما يقول) ولا يتأتى ذلك إلا إذا أتقن المتكلم فن الإقناع ووسائله. واشترط الرماني في البلاغة حسن اللفظ، (إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)[3]فليست التواصلية مقتصرة عنده على الإفهام فحسب، وإنما أن يصل المعنى إلى القلب في صورة لفظية حسنة تكون أدعى لقبول قوله، وتمكن مقصوده من نفس سامعه.

جلي أن البلاغة اهتمت بالمتكلم، واعتنت به، لأنه الطرف الرئيس الذي يحدد سمات نصه وصورة تراكيبه التي بها تطابق مقتضى الحال، يقول السكاكي: (بلوغُ المتكلمِ في تأدية المعاني حدّا له اختصاصٌ بتوفية خواصِّ التراكيب حقَّها، وإيرادُ التشبيه والمجاز والكناية على وجهها)[4]، وقوله يجعل البلاغة تبدأ من المتكلم والمقصد الذي يريد إيصاله، وما ينبغي أن يتوفر للمتكلم من مؤهلات تمكنه أن يبلغ حدا يمكنه من الوفاء بحق المعاني.

---

١ الصناعتين/ ٥١.

٢ الصناعتين/ ٣٢.

٣ النكت في إعجاز القرآن–ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/ ٧٥/ ت/ محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام/ دار المعارف–مصر.

٤ مفتاح العلوم/ ٥٢٦.

المخاطب والوظيفة التواصلية:

لا تقل مكانة المخاطب في العملية التواصلية عن مكانة المتكلم، فالمتكلم لا يكون بليغا إلا إذا جاء كلامه مناسبا لحال المخاطب، فهو المقصود بقولهم (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) والمتكلم يجعله بؤرة اهتمامه ومركز عنايته، وهذا ما قرره الجاحظ بقوله: (ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وأقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)[1] كما جعل الحالة النفسية أو المزاجية للسامع ومدى استعداده للتلقي مناط إقباله وتفاعله مع ما يلقى على مسامعه، فيقول: (إذا لم يكن المستمعُ أحرصَ على الاستماع من القائل على القول، لم يبُلغ القائلُ في منطقه، وكان النُّقصان الداخلُ على قوله بقدْر الخَلَّة بالاستماع منه).[2]

وليس الاهتمام بالمخاطب في الشعر فقط، وإنما في الخطابة أيضا، فقد تنبه ابن وهب إلى أهمية مراعاة الحالة النفسية للمخاطبين أثناء القيام بالخطبة فيهم، وأن يراعي احتمالهم ونشاطهم، فيقول: (وإذا رأى الخطيب من القوم إقبالا عليه وإنصاتا لقوله فأحبوا أن يزيدهم، زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم، وإذا تبين منهم إعراضا عنه وتثاقلا عن استماع قوله خفف عنهم، فقد قيل من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مئونة الاستماع منك)[3] فالمتلقي ركن ركين في النظرية

---

١ البيان والتبيين/ الجاحظ/ ١/ ١٣٨وما بعدها. ت/ عبد السلام محمد هارون/ مؤسسة الخانجي/ ط ٣/ القاهرة.

٢ البيان والتبيين/ الجاحظ/ ٢/ ٢١٥.

٣ البرهان في وجوه البيان/ ابن وهب/ ٩٥/ د/ حفني محمد شرف/ مطبعة الرسالة/ ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م.

البلاغية العربية، مما يدعو المتكلم لمراعاته والاهتمام بالألفاظ والأساليب المشتملة على الأدوات والآليات ذات الإقناع والإثارة والتهييج.

وتقريرا لهذه المكانة التي لفتت إلى دور المخاطب ومشاركته في العملية التواصلية يسوق أبو هلال العسكري مثالا من كتابي النبي-ﷺ- إلى كسرى وإلى قوم من العرب، ومراعاته لكل منهما وخطاب كل فريق بما يناسبه، فيقول: (لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته، فكتب: من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس:

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعية الله، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإثم المجوس عليك.

فسهل ﷺ الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية.

ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ، لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله.

فكتب لوائل بن حجر الحضرمي:

من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، على التبعة الشاة، والتيمة لصاحبها، وفي السيوب الخمس، لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شنار، ومن أجبى فقد أربى، وكل مسكر حرام)[1] فاختلف مستوى البيان النبوي تبعا لاختلاف حال المخاطب الذي اقتضى السهولة والوضوح مع كسرى، والفخامة والجزالة مع المخاطبين من العرب.

ولذلك (حظيت إشارات الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى دور المتلقي في تَمَثُّل الصورة باهتمام الدرس النقدي الحديث، إذ اهتمّ النقاد بدور المتلقي في فهم

١ كتاب الصناعتين/ ١٥٥.

النص والإبداع فيه، عن طريق النظرة المتأملة في النص التي تتجاوز ظاهر الألفاظ إلى روحها وإيحاءاتها، فغدا لديهم ما يُعرف بنظرية التلقي التي أخذت تتطور في الفكر النقدي، فأصبح النص يختلف باختلاف القارئ المتلقي، فكل متلقٍ يخلع على النص من ذاته وعوالمها الخاصة، فيغدو مبدعا جديدا)[1]، ولم تعد عملية الإنتاج الإبداعي قاصرة على المؤلف وحده، وإنما أصبح المتلقي مشاركا ودوره فاعلا في هذه العملية المبدعة[2].

وجدير أن أذكر مراعاة الإمام الفروق الفردية بين المتلقين، فهم بين اثنين: طبقة العامة، وطبقة ذوي العقول الناظرة، أو اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل، ويسوق ذلك مع شاهده: (وأما ما تقوَى فيه الحاجة إلى التأوُّل حتى لا يُعرَف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع، فنحو قول كَعْبٍ الأشقريّ، وقد أوفده المهَلَّب على الحجّاج، فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس، فسأله في آخر القصّة قال: فكيف كان بنو المهلب فيهم؟ قال: كانوا حُماة السَرْح نهاراً، فإذا ألْيَلُوا ففرسان البَيَات، قال: فأيُّهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلْقة المفرغة لا يُدرَى أين طَرَفاها، فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فَقْره إلى فضل الرِّفق به والنظر، ألا ترى أنه لا يفهمه حقَّ فَهْمه إلا من له ذهن ونَظَرٌ يرتفع به عن طبقة العامّة؛ وليس كذلك تشبيه الحجّة بالشمس، فإنه كالمشتركِ البَيّن الاشتراك، حتى يستوي في معرفته، اللبيبُ واليقِظُ والمضعوفُ المغفَّل)[3] فالعجل الضعيف النظر يقف عند ظاهر النص، وأما الصبور المتوقد الذهن المدقق فهو يغوص

١ القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني/ د/ محمد عبد الله أبو الرب، د/ عبد العزيز موسى درويش/ ١٩٨/ مجلة بحوث التربية النوعية- جامعة المنصورة – عدد خاص ٢٠- فبراير ٢٠١١م.

٢ ينظر/ من سلطة النص إلى سلطة القارئ/ فضل ثامر/ ٩٨/ ع ٤٩/ مجلة الفكر العربي.

٣ أسرار البلاغة/ ٩٤.

في النص، ويتفاعل معه، ويفليه، ليصل المعنى إلى قلبه وعقله ويتأثر به وينال منه ثمرته التي قصد إليها.

النص ووظيفة التواصلية:

البليغ هو من ينتج كلاما بليغا يتناسب مع المقام، وهذا يتطلب أن يكون الأديب عارفا بسنن التخاطب المجتمعي فيما بينهم وملما بالعادات والتقاليد، وأساليبهم حينما يفخرون أو يتهاجون أو يتعاتبون أو يعتذرون، فالبلاغة إذن لا تقف عند حد شروط الفصاحة والتمكن من الأساليب، وإنما تتطلب أن يكون الأديب فقيها بواقع مجتمعه والفروق بين أفراده وجماعاته.

فمادة البلاغة العربية هي المستوى العالي للغة الموصوف بالبلاغة، وأعلاه البيانان الكريمان: القرآني والنبوي، والبيان الإنساني البليغ شعرا ونثرا، وهذا ثابت من ثوابت البلاغة ومادتها التي تستمد منها أسرارها وجديتها، ومن أسباب ذلك:

- نشأة البلاغة العربية تحت راية القرآن الكريم.
- استنباط علوم البلاغة وقواعدها من البيان القرآني والتراث الشعري والخطابي في عصورهما المختلفة
- حيوية البيان البليغ وخصوبته الجمالية الملهمة
- الحفاظ على اللغة في مستواها العالي.
- الإسهام في الارتقاء بمستوى لغة التخاطب لتقترب من المستوى البليغ.

وارتباط البلاغة بالبيان العالي البديع من أهم أوجه الخلاف بين البلاغة والتداولية الغربية المهتمة منذ نشأتها بلغة التخاطب اليومي، ولو طبقت التواصلية التداولية على لغة التخاطب في الشارع العربي دون البيان العالي البليغ لربما قبل ذلك، فتطبيقها على البيان البليغ يطفئ جمالياته وأسراره.

لذلك تميزت البلاغة العربية بالتحليل الجمالي الذوقي في مجاليه الأخلاقي والفني، وخير ما يمثل به ما في تراث الإمام عبد القاهر الجرجاني، الذي بلغ التحليل البلاغي على يديه مبلغا ملهما لكل من يريد تدبر النصوص الأدبية

واستخراج أسرارها الكامنة، ونكاتها الدفينة، وأصبحت نظرية النظم فيضا يسير بطريقة ما في النظريات المتداولة اليوم بصور شتى، وطرائق تدعي أنها تتلبس ثوب الجديد.

ونظرية النظم تلتقي من وجوه كثيرة مع ما وصلت إليه (الدراسات الغربية الحديثة بكل وسائلها العلمية المتطورة، من خلال تحليلاته العميقة وجهوده القيمة التي تعكس مدى قوتها وقدرتها على الصمود طوال هذه الفترة الزمنية، لتثبت بكل جدارة واستحقاق نفسها كنظرية نقدية لغوية لها كيانها المستقل في النقد الحديث)[1]، وقد أسس نظريته –كما أكدت الدراسة–بقراءته العميقة والمتنوعة للتراث العربي الغزير، وتدبره لخصائص تراكيبه ودلالات أساليبه، مغلغلا فكره فيه شرحا وتحليلا ونقدا.

ثم جاءت المدرسة السكاكية لتنظم هذا التراث البلاغي وتضع له قواعده وتعريفاته واقسامه، جاعلة من الآيات القرآنية ثم الأبيات الشعرية شواهد متنوعة وغزيرة للقواعد البلاغية، مما جعل البلاغة العربية مربعا تواصليا خصبا للتصورات العقلية والنبضات الوجدانية بما في شواهدها المختارة بعناية وأمانة من قيم وأخلاق إسلامية وإنسانية راقية، وسمو وجداني تنبض به القلوب العاشقة، وكانت دائما حصنا –كبقية العلوم الإسلامية–للأمة شبابا وشيوخا، رجالا ونساء تستقي منه قيمها، وتتزود منه فكرا راقيا، ومبادئ سامية، فهي علم تربوي منذ أن حبا هذا العلم الشريف حبوته الأولى.

تجلى مما سبق أن المقام والمتكلم والمخاطب والنص عمود رئيس في التواصلية البلاغية قامت له وبه البلاغة العربية منذ خطواتها التأسيسية، وجزء عليٌّ من بناء نظريتها المتكاملة، وأنه يقاس عليها، ولا يصح علميا ومنطقيا أن

---

١ نظرية النظم الجرجانية نظير كفء للدراسات اللسانية الحديثة–دراسة مقارنة/ د/ صفية بن زينة/ مجلة ريحان للنشر العلمي/ ٢٧٩/ عدد/ ١١/ ٢٠٢١م.

تقاس على ما استنسخ من نظريات غامضة ملبسة غير مكتملة كالتداولية وغيرها. ويستبين خطأ من وسمها بالبلاغة القديمة، فهذا إفك علمي يسيء إلى هذا التراث البلاغي الجليل الذي استمد قواعده واستكمل بنيانه من البيانين الكريمين ومن البيان الإنساني العربي الفريد.

التواصلية التداولية:

احتفى كثير من الباحثين العرب من أصحاب الميول الثقافية الغربية بالتداولية لما لمسوه فيها من الاهتمام بدراسة اللغة (لا بوصفها نظاما أو بنية، بل على نحو ما تستعمل في المواقف الاتصالية المختلفة (واقعية أو متخيلة) أي بوصفها نسقا رمزيا يستخدم من أجل التواصل)[1] هذا التوجه إلى دراسة الاتصال اللغوي في السياق، وأثر هذا السياق في بنية الخطاب كما يهدف إليه المتكلم، وتداوله بينه وبين المخاطب، و(أن كل دراسة تتناول (المعنى) اللغوي بعيدا عن (التواصل) وبعيدا عن الاستعمال، وبعيدا عن سياقه الاجتماعي، وبمنأى عن (المقام) لا تمت إلى التداولية بأية صلة)[2]جعل التداولية قبلة لكثير من الدارسين والباحثين العرب.

وأطلق الباحثون على العوامل غير اللسانية في التناول التداولي مصطلحين: المقام أو السياق، (وإن حظي الثاني بتواتر أكبر. وتمثل هذه العناصر غير اللسانية موضع اهتمام التداوليات، إلى الحد الذي ينظر فيه إلى موضوعها على أنه دراسة المعنى في علاقته بمقام الخطاب أو الاستعمال)[3] فهي تهتم بمقاصد المتكلم من خلال تفاعل اللغة مع ما يحيط بالموقف الخطابي

١ المقام في البلاغة العربية: دراسة تداولية/ شكري الطوانسي/ ٦١/ مجلد ٤٢/ عدد ١/ مجلة عالم الفكر/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ الكويت–سبتمبر ٢٠١٣م.

٢ التمظهرات التداولية في البلاغة العربية/ د/ رابح بن خوية/ ٩/ الأرشيف العربي العلمي ٣٠١٨م.

٣ المقام في البلاغة العربية دراسة تداولية/ ٦١/ مجلد ٤٢/ عدد ١.

من ملابسات ومقامات وسياقات اجتماعية وغيرها. واكتشاف هذه المقاصد ومشاركة المخاطب في هذه العملية.

والتداولية ليست طريقا واحدا لهذه الدراسات التي تتوجه لتناول المعنى اللغوي في سياق التواصل بين المتكلم والمخاطب، فلا تزال إشكالية تداخلها مع العديد من العلوم الأخرى ملبسة وغامضة لعدم القدرة على تحديد منهج واضح المعالم للدارسين، (فقد أخذت تظهر لها فروع يتميز كل منها عن الآخر، فهناك التداولية الاجتماعية... والتداولية اللغوية والتداولية التطبيقية... ثم التداولية العامة)[1] وهذا الاتساع الغير مؤطر بإطار شامل يجمع شتاتها يربك الدارس لهذه الوظيفة التواصلية للتداولية.

ولا يشك أحد في دور التداولية في اللفت إلى هذا الدرس اللساني الذي يؤدي دورا كبيرا في دراسة المعنى اللغوي في سياقه التواصلي، وليست بعيدة عن التواصلية البلاغية، بل إن التداوليين الغربيين لو اطلعوا على التواصلية في البلاغة العربية ما أجهدوا أنفسهم سنين عديدة، ولتوصلوا إلى ما وصلوا إليه في وقت قياسي، لما بين التواصلية في التداولية وفي البلاغية العربية من أوجه اتفاق عديدة، إن لم تكن متطابقة.

لكن الأمر المثير للدهشة والحيرة أن هؤلاء المنبهرين بوظيفة التداولية والمتبنين لها ومحاولاتهم تطبيقها على التراث العربي الأصيل غضوا الطرف عن الوظيفة العظمى للبلاغة العربية التي سبقت بمئات السنين، وأصبح العدول منهم يقابلون بين وظيفة التداولية بما في البلاغة العربية، جاعلين من التداولية مقياسا لتداولية البلاغة العربية، وهذا قياس ينقص من مكانة القائمين بهذه الدراسات،

١ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر/ محمود أحمد نحلة/ /١٠/ دار المعرفة الجامعية – مصر ٢٠٠٦م.

لوقوعهم في خطأ بحثي حيث قاسوا الأصل على الفرع، وإنما ترجع الفروع إلى الأصول، ويقاس اللاحق على السابق.

ومما يضعنا في حالة من الدهشة والعجب أن ترى دراسة علمية تذهب إلى أن أحد أهم أهدافها (هو إعادة قراءة البلاغة العربية، وذلك بالعودة إلى البلاغة العربية ومحاولة استخلاص بعض الملاحظات التي تثبت البعد التداولي في البلاغة العربية)[1] وقد جعلت التداولية مقياس صواب البلاغة العربية بتاريخها وعطائها وثوابتها التي ظلت شامخة في وجه كل فكر منحرف عن فكر الأمة ووجهتها.

وقد شوشت الدراسة على هدفها الأهم بإثباتها تداخل المصطلحات الغربية وتعددها وغموضها (ذلك لأن هذه المناهج جاءت واصفة للغتها الخاصة)[2] وهذا أدعى ألا تكون النظرية التداولية الغربية حكما على هذا التراث البلاغي الذي يدعو إلى الوضوح المعين على الفهم.

ومثل هذه الدراسات أصبحت تطل برأسها في كثير من الجامعات وخاصة في بلاد المغرب العربي، وجلها إن لم يكن كلها دراسات تتهافت أمام البحث العلمي الجاد الذي يكشف عن ضعف الفكر العربي اللاهث وراء ما تنتجه عقول الآخرين، فيتلقفه وهو مستلق على ظهره دون كد بحثي وبذل علمي، ولم ينهض ليخرج ودائع علماء الأمة المؤسسين الذين أودعوا في مؤلفاتهم عطاءات للأجيال القادمة، كوصفهم البيان باللطيف أو الحسن أو النادر، ليشحذوا همة العقول للبحث عن أسباب هذه الأوصاف، وهذا باب جليل من العلم إذا فتح فتحت به دراسات تنهض بجوانب مهمة من علوم البلاغة وترتقي بها.

---

١ مقدمة البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال (مفتاح العلوم) للسكاكي/ أم الخير سلفاوي/ جامعة قاصدي مرباح ورقلة ٢٠٠٩م.

٢ المصدر السابق.

مادة التداولية:

في حين تحتفي البلاغة العربية بالبيان البليغ، أجد التداولية تتخذ من الحديث اليومي مادة لها، وهذا خير برهان على أن لكل لغة علومها ونظرياتها المتسقة مع خصائصها، والمناسبة لسماتها، وتقترب التداولية كثيرا من نمط المدرسة السكاكية التعليمية باتخاذها شواهد مقطوعة من سياقها، لتقرر بها قواعدها، ويعلو المنهج السكاكي بسبقه أولا، وثانيا باتخاذه شواهده من البيان القرآني الكريم والبيان الإنساني البليغ بخلاف التداولية التي جعلت من الحوارات اليومية شواهد لها.

كما تقترب من المنهج السكاكي في اعتماد التقسيم والتقعيد والتعريفات منهجا لها، وقد هوجمت المدرسة السكاكية ومازالت بسبب هذا المنهج الذي اقتضاه التيسير والتعليم والحفاظ على استمرارية عطاء هذا العلم الشريف في الأمة، فإذا بالتداولية وتهافت الدروس اللغوية والبلاغية عليها تكشف زيف هذه الاتهامات، وأنها لم تكن إلا سهاما عابثة لتنحية هذا العلم الشريف الذي أسهم في حفظ هوية الأمة وتراثها العربي والإسلامي الكريم.

وبسبب هذه المنهجية التداولية التي اعتمدت لغة الحوارات اليومية مادة لتبيين قواعدها كانت التحليلات التداولية المفروضة على النصوص العربية جافة بلا روح، وأسوق مثالا للتداولية في تحليلاتها للبيان القرآني الكريم، ففي دراسة عنوانها: (الاستلزام الحواري في سورة النساء: دراسة تحليلية لآليات الخطاب والتأويل القرآني لدى الزمخشري) للباحثة/ حنان جابر الحارثي.

تبدأ الباحثة بتعريف التداولية ونشأتها وتطورها، ثم تعرج على موضوع الاستلزام الحواري، والمطلع على الدراسة يجد نفسه محاطا بالأسماء الأجنبية التي لا تنتمي لثقافتنا ولا لبياننا العربي بصفة عامة، ولا لبياننا القرآني الكريم بصفة خاصة، ثم تتعسف في تطبيق إفرازات عقولهم على تراث لا ينتمون إليه،

مما يجعل مثل هذه الدراسات لا تقدم جديدا، إلا دراسة مهجنة من حيث النظرية والموضوع، ومن ثم لا ينسجم النص العربي البليغ مع القواعد المفروضة عليه.

وتختار مباحث علم البيان مادة لبحثها، وتجهد نفسها وقارئها في تبيين علاقة الصور البيانية بالاستلزام الحواري، وفي أول فقرة تختار خمس آيات تناولها الزمخشري بالتأويل والتحليل، لتبرهن على أنه طبق قاعدة الكم التي عرفتها بأنها (إفادة المخاطب على قدر حاجته بحيث لا تزيد عليه ولا تنقص منه)[1]

وكيف يوظف الزمخشري هذه الإستراتيجية _كما تقول_ وهو أعظم من طبق نظرية النظم الجرجانية، متبعا طريقة عبد القاهر الجرجاني في فرض الأسئلة الحوارية والإجابة عنها، لما في هذه الطريقة التحليلية من فوائد عديدة منها التواصل مع القارئ وإثارة عقله ولفت انتباهه حتى لا يفوته شيء، ولتقرير مسألته التي يتناولها.

والزمخشري لم يكن مطبقا فقط لنظرية النظم، وإنما له اجتهادات بلاغية تقترب من اجتهادات الإمام عبد القاهر، ولو وجهت الباحثة دراستها لتلك القضايا التي تفرد بها الزمخشري لقدمت للدراسات البلاغية خدمة علمية جليلة، ولم تكن في حاجة أن تلزم الزمخشري بتطبيق منهج نما في بيئة مختلفة.

ثم تختم الفقرة بقولها: (علما أن باب الإطناب والإيجاز والمساواة في البلاغة العربية لا ينكر دوره في تأويل بعض النماذج السابقة، وإن كان الباحث يرى أن المقاربة التداولية الحديثة أكثر دقة في تناول الظاهرة، ... الأمر الذي يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن أبرز ما تمتاز به المقاربة التداولية عن

١ الاستلزام الحواري في سورة النساء/ ٣٥٢.

التناول البلاغي لهذه الظواهر الخطابية أن الأولى تؤطر وتنسق في الباب الواحد ما بعثرته البلاغة العربية في عدة أبواب)[1]

وهي نتيجة لا تستند إلى الأسلوب العلمي الدقيق الذي يقرر أن البلاغة العربية مدرستان: مدرسة تحليلية ذوقية، وفيها يتناول البلاغي جميع ما يشتمل عليه النص من ألوان بلاغية، بدءا من الكلمة فالجملة فالسياق وما يشتمل عليه من خصائص ودقائق تبرز المعنى وتوضحه وتقرره في نفوس السامعين، وللباحث حرية تامة في استخراج جميع الألوان البلاغية والتفتيش عن أسرارها وفق قدراته العلمية وذائقته البلاغية وطول نفسه دون أن تحده حدود أو تقيده شروط.

ومدرسة السكاكي التعليمية، وفيها تصطفى الشواهد التي يكون فيها الشاهد البلاغي ظاهرا، ووفقا لهذه المدرسة التي تعد تقسيماتها البلاغية وقواعدها من ثوابتها، إلا أن التناول لها متغير وفق رؤية الباحث والدارس، فما المانع من تناول الباحثة للموضوعات ذات الصلة الوظيفية في موضع واحد من دراستها.

وبالتالي فإن البلاغة كانت دقيقة فيما تتناوله من قضايا وشواهدها وفق المنهج الذي تتبناه كل مدرسة، ولعل المشكلة التي نحت بالباحثة إلى هذه النتيجة أن مادة التداولية التي تسوق منها شواهدها هي لغة الحديث اليومي، وتوظيفها لتقرير قواعدها، ومن هنا يكون التحليل منطقيا جافا، ومحاولة تطبيقه على البيان العربي البليغ يوقعنا في هذه الأحكام غير الدقيقة لاختلاف المنهجين.

ولما كان العقلان: العقل البلاغي، والعقل التداولي–مختلفين ثقافيا ولغويا، فإن الذوق التحليلي مختلف وإن اتفقا في النتيجة، ومن أمثلة التداولية المشهورة قولهم: (في شركتكم خنزير) ثم تحللها التداولية كالتالي: (تؤول الجملة على أن

١ السابق/ ٣٦٥.

المتلفظ بها أخذ بعض السمات الدلالية من كلمة خنزير (قذر–نجس–يعيش في الوحل) ورأى أنها تصلح لذم العاملين في شركة المخاطب، فكان المعنى المستلزم من الجملة هو شتم العاملين في الشركة بأنهم أناس سيئون يمارسون بعض الأفعال القبيحة)[1]

وفي البلاغة العربية تجرى الاستعارة بتشبيه العاملين بالخنازير، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به، والقرينة (في الشركة) على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية لكونها في الاسم، والتداولية لا تنظر إلى هذه التفاصيل ولا تتوقف أمام دقائقها، كما تهتم البلاغة العربية، لما في التفاصيل من دلالات مؤثرة في ظلال الصورة وإيحاءاتها، ومع ذلك يدعون أن التداولية أكثر تفصيلا واهتماما بمكونات الجملة.

وجميع ما وقع تحت يدي من دراسات تداولية تحليلية للنصوص العربية لا تعجز البلاغة عن تناولها وصفا وتحليلا، بل إن البلاغة هي الأجدر بها، والأقدر على هتك ستار أسرارها واستخراج لآلئها، ولا أجد سببا لترك تناولها بلاغيا والانحراف إلى تداوليتها إلا التأثر بدعاة المعاصرة والعولمة الثقافية، والنفور من بلاغة العرب والإسلام واتهامها بالعجز ووصفها بالقديمة، يقول أحد الباحثين في تحليل الإشارة في بعض أبيات لنزار قباني تحليلا تداوليا: (ويرى الباحث أن الماضي عند نزار يدل على المستقبل إذا كان في مقام دعاء أو شرط، على نحو قوله:

لا تسكروا بالنصر
إذا قتلتم خالدا
فسوف يأتي عمرو
وإن سحقتم ورده
فسوف يبقى العطر

١ الاستلزام الحواري في سورة النساء/ ٣٥٨.

ويجد الباحث أن دلالة الفعل الماضي في هذا المقام أدى معنى الاستقبال لتوقع غرض الوعيد الذي لا يكون إلا مستقبلا، لأن القتل والسحق لم يتحقق، فالفعل في كليهما أصبح رهين الشرط إذا)[1]، ودلالة الشرط ب(إذا) هو تناول بلاغي، تناوله الإمام عبد القاهر الجرجاني تناولا دقيقا وضح فيه الفروق بين استعمال (إذا) و(إن)، وأن اصطفاء الشاعر لها هنا لتأكيد تهديده العدو المنتشي بمواجهة الشعب الفلسطيني المسلم الأعزل والمحاصر من القريب والبعيد بقرارات عالمية غير معلنة، حتى يستفرد به اليهود لعنهم الله، وأن قتلهم خالدا لا يعني موت الأمة، فهي أمة ولادة يموت قائد ليولد قادة.

والذي لم تتناوله التداولية أيضا الرمزية المعبرة عن رؤية الشاعر الخاصة بأن استبدل خالدا سيف الله المسلول رمز الجهاد الإسلامي بتاريخه المجيد بعمرو بن ورد الشاعر الجاهلي من عبس وأحد فوارسها الصعاليك، لتتضح رؤيته للصراع مع المحتل، وأن المواجهة عربية وليست إسلامية، وبسبب هذه الرؤية المنحرفة التي نَحَّتْ العقيدة الإسلامية عن المواجهة مع قوم يقاتلون تحت نجمة داوود كادت فلسطين بمسجدها المبارك أن تضيع.

كما أن دلالة الماضي مع الشرط على المستقبل دلالة يعرفها طلاب العلم فضلا عن الباحثين، فلم يكن التناول جديرا بأن يبدأ الباحث تعليقه بقوله: (يرى الباحث/ يجد الباحث) كما لم تأت التداولية بشيء يجعل الباحث ينشغل ويشغل قارئيه بالتوجه التداولي عن النظرية البلاغية مستبدلا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وإذا كانت البلاغة وافية، ولا حاجة للتطبيق التعسفي للتداولية، فلمَ تتكاثر الدراسات التداولية في جميع الجامعات والمؤتمرات، والتسويق لها يسير على قدم

---

١ تداولية الإشارة عند نزار قباني–قصيدة منشورات فدائية/ د/ ضيف عبد المنعم الفرجاني/ ١٤٢.

وساق؟ فيجيب التداوليون بأن توجه المقاربة التداولية الحديثة (يخدم البلاغة العربية ويرفع قيمتها أكثر من الإبقاء على معطياتها كما هي منذ عدة قرون باسم المحافظة على أصالتها)[1] وهي إجابة تنم عن كسل عقلي، يميل إلى الاستهلاك أكثر من الإنتاج العلمي، فالدعوة إلى التجديد والتطوير دعوة تراثية سبق أن تناولتها الدراسة، وليت هذه العقول اعترفت بعجزها عن تجديد الدرس البلاغي المعاصر، ولم ترم البلاغة بالجمود والعجز عن المعاصرة، ولكنها استسهلت ترجمة النظريات الغربية وارتضت أن تظهر بالحق أو بالباطل سموها على النظرية البلاغية العربية، وفرضت تطبيقاتها على التراث العربي، مما جعل هذه الدراسات مسخا ليست بلاغية خالصة، وليست تداولية غربية خالصة، وما صنعت إلا أن ألبست جسدا عربيا ثيابا غربية ثم صاحت الآن أصبح إنسانا معاصرا.

ومع ذلك فإن الدراسة لا تدعو إلى التقوقع والانكفاء على الذات، وترك معرفة ما يدور عند الأمم الأخرى، وإنما تدعو إلى الانضباط الفكري الذي يحفظ للأمة ثقافتها، وللعقول نضوجها، وللعلوم تطورها، بأن يحكم الباحث علومه ويملك زمامها، ثم يطالع ما عند الآخرين بعد أن يكون قد أسس معرفته بعلوم أمته، فغلق (الأبواب في وجه أي جهد إنساني من غير أمة المسلمين، ... ضد طبائع العقول؛ لأن العقل المشوق للمعرفة لا تقف في وجهه الحواجز)[2] وأن يكون ما نطلع عليه من علوم الأمم الأخرى حافزا للارتقاء ومحفزا لبذل الجهد والعطاء في البحث العلمي الجاد، ومنبها لما نملك من تراث يتمتع بالقابلية للتجديد، وأن الخطر أن نترك علومنا وننشغل بما عند الآخرين، والادعاء بجمود البلاغة العربية، والمطالبة بتنحيتها جانبا. (فكم كتب علماؤنا في الرومانتيكية

١ السابق/ ٣٥٩.

٢ خصائص التراكيب/ ٢٠.

والواقعية والأسلوبية والبنيوية، وكم جرت أقلام في الصحف والكتب والمجلات بهذا وشبهه، وكم جرى الكلام في قاعات المحاضرة بهذا وشبهه وكم من أستار أسدلت حول هذا ومثله).[١]

وقد نتج عن قضية المعاصرة والجرأة على التراث البلاغي كثرة الدراسات المخلوطة بما يملكه الدارس من علوم العربية وبما عند الآخرين، فما هي بصفاء تراثنا ولا هي عجماء خالصة، وهذا الخلط يشوش على علوم العربية ويطفئ بريقها في نفوس أبنائها، ويجمد عقول الأمة، ويمسخ وجوهها[٢]. والمطلوب أن تكون الأولويات لمناهجنا الأصيلة ذات العراقة المتجددة، والجذور الثابتة والفروع الشامخة، ثم لا مانع من دراسة هذه المذاهب وتلك المدارس[٣].

الباب مفتوح لكل من تثبت من علوم أمته، وسليقتها، ومناهجها، فلا ضير إذن من سعة اطلاعه على ما عند الآخرين، بل سيكون نافعا ومفيدا بعيدا عن الخلط والتهجين الذي لا يستقيم به فكر ولا وجدان.

نستخلص مما تقدم أن التواصلية الفعالة المؤثرة هي وظيفة بلاغية ظاهرة وثابت من ثوابتها الملحوظة من أول سطر خط فيها، بدءا من تعريفها لغة واصطلاحا مرورا بعلومها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) ثم تأتي التداولية الغربية لتشغل حيزا كبيرا من الدرس العربي اللغوي والنقدي والبلاغي لاهتمامها بالبعد التواصلي للغة باعتبارها علما جديدا للتواصل[٤]، وواضح أن أثر قضية الحال أو المقام هي أساس ما في الدرس التداولي الغربي من بعد تواصلي، وأننا بحاجة إلى قراءة تراثنا البلاغي وتدبر أصوله وفروعه، وتحديد ثوابته ومتغيراته، قراءة عربية خالصة وستكتشف هذه القراءة أن مساحات التجديد والتطوير كبيرة

١ دلالات التراكيب/ ١٨.

٢ ينظر خصائص التراكيب/ ٢٤ وما بعدها.

٣ ينظر/ دلالات التراكيب/ ١٨.

٤ البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال (مفتاح العلوم) للسكاكي/ ٥.

وواسعة، وأن المشكلة لم تكن يوما في بلاغتنا، فقد أثبت تاريخ نشأتها وتطورها أنها من العلوم التي بدت سليقة ثم نقدات ذوقية ثم تطورت إلى أن أصبحت مناهج ومدارس، بما يؤكد قابليتها للتجديد والعطاء المناسب للعصر وحاجة الناس.

وإن الانغماس فيما تنتجه العقول الغربية من نظريات تداولية ومحاولات فرضها على تراثنا ولغته وقيمه البيانية والجمالية يعلى من شأن المستوى اللغوي الأدنى لاهتمام هذه التوجهات التداولية بلغة التخاطب اليومية، ومساواته بالبيان العالي البليغ، وهذا ما لا تقبله البلاغة المهتمة بالبيان البليغ وبالدعوة إلى الارتقاء اللغوي الخصب المثير لملكات الفكر والأحاسيس الوجدانية.

ومن آثار الدعوة إلى التخلي عن بلاغتنا الشريفة وتهجينها أو استبدال نظريات ذات خصائص منبثقة عن لغة أخرى بها- إدخال الجيل في متاهات أجنبية غريبة عن لغتنا وثقافتنا، وقطع الصلة بينه وبين علم شريف يعد من أهم علوم القرآن الكريم، وفي ذلك من الخطر ما فيه، على جيل تتقاذفه أمواج متلاطمة من التشكيك في عقيدته وثقافته، وتتلقفه شياطين الإنس والجن بالانحلال أو الإلحاد أو هما معا.

الخاتمة:

بعد أن تمت هذه الدراسة التي عمدت فيها إلى المقارنة بين ثوابت البلاغة العربية وبين ما تملكه التداولية من مبادئ، فقد أثبت بعض النتائج العلمية التي ينبغي الالتفات إليها والإفادة منها في الدرس البلاغي المعاصر، وتنبيه الدراسين إليها في مواجهة الهجمة التغريبية أو التخريبية المتدثرة بلباس البحث العلمي والمعاصرة، ومن هذه النتائج ما يلي:

- أصالة النشأة العربية والإسلامية أهم ثوابت علوم البلاغة التي ولدت من رحم تراث عربي جليل القدر لم تحظ به أمة من الأمم الأخرى.
- أصالة النشأة البلاغية وتطورها من سليقة خالصة إلى نظرية متكاملة– جعلت من ثوابت علوم البلاغة امتلاكها صفة التجدد والتطور الذاتي وفق مقتضيات كل عصر، وأن تجديدها لا يؤتي ثماره إلا إذا كان تجديدا من داخلها، سواء كان في المناهج، أو في التأليف والدراسة والبحث التحليلي التعليلي أو في طرق التدريس وإستراتيجياتها، فلا مناص لمن يسلك هذا الطريق من تقصي النظريات البلاغية والبناء عليها.
- بطلان – بناء على ما سبق –دعوى الذين يدعون تجديد البلاغة إما بالمطالبة بتنحيتها، واستبدال ما عند الثقافات الغربية بها، أو بتهجينها بما تقع عليه أيديهم من ثقافات الآخرين، وكلا الفريقين جاحد لتراث أمته العظيم، ومشدوه إلى ما لدى الآخرين، فهو الانهزام النفسي أمام الثقافات المفروضة بالقوة كما قال ابن خلدون.
- التواصلية ثابت بلاغي مهم، ووظيفة رئيسة في النظرية البلاغية، تتجلى لكل دارس وباحث من خلال تعريف البلاغة لغة واصطلاحا، ومن خلال التلبث أمام مظاهرها في علوم البلاغة الثلاثة.

- رعاية المقام ومقاصد المتكلم وحال المخاطب من أهم قواعد التواصلية ومبادئها في البلاغة العربية التي حررتها وأسست لها منذ بداية الدرس البلاغي، وسبقت بها التداولية بمئات السنين.
- مادة البلاغة العربية وشواهدها النصوص الأدبية البليغة، وليست لغة الخطاب اليومي، وهذا أهم وجوه الاختلاف بين البلاغة والتداولية التي تتخذ من لغة التخاطب شواهد لها، والبلاغة بذلك أجل وأرقى وأشد عمقا، وأبلغ في الارتقاء باللغة في مستواها الأول، والانتقال به إلى مستوى اللغة الأدبية البليغة أو ما يقترب منه.
- ارتباط البلاغة العربية باللغة العالية البليغة أكسبها قوة شخصية وشموخ وعلو برز فيما قامت به من دور تربوي لأجيال الأمة المتعاقبة، وما زالت الأجيال المعاصرة في حاجة إلى تقديم هذا العلم إليهم في صورة تناسب سمات هذا العصر وتطور تقنياته وتغير ثقافته. بخلاف التداولية الذرائعية التي لا تقيم وزنا لجماليات الشواهد والنصوص وما تضمنه من قيم ومبادئ.
- تتجلى سمة الوضوح والتحديد في الدرس البلاغي، بينما تتسم التداولية بالغموض والفوضى لتداخلها مع الكثير من الدراسات الأخرى، مما جعل من المستحيل وضع تصور أو تعريف أو تأطير دقيق وواضح لها، على عكس البلاغة العربية التي استقرت تعريفاتها وتقسيماتها عند السكاكي والخطيب.
- تقف البلاغة بتاريخها وبدورها في تنمية لغة الأمة وقيم أبنائها عثرة في وجه محاولات التشويش عليها ووسمها بالبلاغة القديمة وتسليط الضوء على مخرجات المطابع الغربية ووسمها بالجدة والمعاصرة.
- يجب أن تقصد الدراسات المقارنة إلى تقرير خصائص وميزات البلاغة العربية وأن تتسم بالشجاعة العلمية في إبراز ما في التراث البلاغي العربي من أسس قامت عليه الكثير من الدراسات الغربية الحديثة، وجعل البلاغة العربية ميزانا تقاس عليه هذه الدراسات الغربية.

- التداولية درس لساني جديد قديم عني بالتواصلية اللغوية بين المتكلم والمخاطب والسياق والموقف، واهتم بقضايا بحثية كالأفعال الكلامية والاستلزام الحواري والإشاريات، وجعل من الحوارات التخاطبية اليومية مادة له، وهذا ما ترفضه البلاغة العربية التي اتخذت من الكلام البليغ شواهدا ومادة للدراسات التحليلية، وهو ما يجعل النظرية البلاغية العربية أرقى لدورها في الارتقاء بالنصوص الأدبية وتحسين لغة التخاطب اليومية، وتنمية الذائقة العربية، ومهارات التفكير لدى الجماهير بصفة عامة، وطلاب هذا العلم الشريف بصفة خاصة.
- تعتبر ترجمة مصطلح (pragmatique) إلى التداولية تحريفا لدلالة المصطلح المترجم على الذرائعية أو النفعية الغربية، لأن البراجماتية وراءها إرث ثقافي ورؤية فلسفية غربية للعالم، وتحريف الترجمة يوهم الدارسين بغير ذلك، مما يوقع الأجيال اللاحقة في مخاطر ثقافية مجافية لقيمنا وثقافتنا.
- يؤدي فرض التطبيقات التداولية على التراث العربي والإسلامي إلى افتقاد روح التحليل البلاغي الذوقي التربوي، وإلى تغريب الثقافة الأدبية بفرض نظريات وأسماء لا صلة لها بالتراث العربي والإسلامي، وهو ما يؤدي إلى تنفير الأمة من هذه الدراسات المرتبطة بعلم البلاغة الشريف.
- ضرورة قراءة التراث البلاغي العربي قراءة عربية خالصة، وتجديد القضايا البلاغية في صورة معاصرة وتقديمها إلى هذا الجيل، ليتسلح بقيم هذا التراث ومبادئه في مواجهة عواصف التغريب والإلحاد واللوطية.

هذا...

وما كان من توفيق فمن الله وحده الذي يسر وأعان وأتم نعمته، وما كان من تقصير فمن نفسي وإن النفس لأمارة بالسوء، ومن الشيطان وإن الشيطان لعدو مبين. والحمد لله أولا وآخرا.

المصادر:

١. أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري/ محمد زغلول سلام/ دار المعارف بمصر.
٢. أسرار البلاغة/ عبد القاهر الجرجاني/ مكتبة وهبة.
٣. أساس البلاغة/ الزمخشري/ ت/ محمد باسل عيون السود/ دار الكتب العلمية ط١/ بيروت ١٩٩٨م.
٤. الأغاني/ لأبي الفرج الأصفهاني/ دار الكتب.
٥. الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع/ الخطيب القزويني/ دار الكتب العلمية/ بيروت لبنان/ ط ١/ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٦. البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم/ شفيع السيد/ دار الفكر العربي/ القاهرة ١٩٩٦م.
٧. البرهان في وجوه البيان/ ابن وهب/ د/ حفني محمد شرف/ مطبعة الرسالة/ ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.
٨. البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال (مفتاح العلوم) للسكاكي/ أم الخير سلفاوي/ رسالة ماجستير/ كلية الآداب واللغات/ جامعة قاصدي مرباح ورقلة/ ٢٠٠٩م.
٩. البلاغة تطور وتاريخ/ د/ شوقي ضيف/ دار المعارف ١٩٦٥م.
١٠. بلاغة الخطاب وعلم النص/ صلاح فضل/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت.
١١. البلاغة العربية قراءة أخرى/ محمد عبد المطلب/ لونجمان مصر/ ط١ ١٩٩٧م.
١٢. البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية/ د/ فضل حسن عباس/ دار الفرقان/ ط٢- ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٣. بين البلاغة العربية والتداولية/ بن زروق سامية/ مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية/ مجلد ١/ عدد ١/ ٢٠١٣م.
١٤. البلاغة الواضحة–المعاني، البيان، البديع/ علي الجارم، ومصطفى أمين/ دار الفكر– بيروت –لبنان ٢٠٠٩م.
١٥. البيان العربي–دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية/ د/ بدوي طبانة/ ط٢–مكتبة الإنجلو المصرية.
١٦. البيان والتبيين/ الجاحظ/ لجنة التأليف والترجمة والنشر/ والبيان والتبيين/ الجاحظ/ ت/ عبد السلام محمد هارون/ مؤسسة الخانجي/ ط ٣/ القاهرة.
١٧. تأصيل البلاغة–بحوث نظرية وتطبيقية في أصول البلاغة العربية/ الأستاذ الدكتور: عبد الملك بومنجل/ منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده/ جامعة محمد لمين دباغين–سطيف٢.
١٨. تجديد المنهج في تقويم التراث/ طه عبد الرحمن/ المركز الثقافي العربي/ ط٢/ الدار البيضاء.
١٩. التحرير والتنوير/ الطاهر بن عاشور/ السداد التونسية/ ١٨٨٤م
٢٠. تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية/ عمر بلخير/ منشورات الاختلاف/ الجزائر/ ط١–٢٠٠٣م.
٢١. تداولية الإشارة عند نزار قباني–قصيدة منشورات فدائية/ د/ ضيف عبد المنعم الفرجاني/ مجلة الدراسات العربية/ كلية دار العلوم– جامعة المنيا.
٢٢. التداولية عند العلماء العرب–دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي/ مسعود صحراوي/ دار الطليعة للطباعة والنشر/ بيروت ط١ ٢٠٠٥م.
٢٣. التداولية في النحو العربي/ فيصل مفتن قاسم/ مجلة أبحاث ميسان/ مجلد ٢/ عدد ٤/ ٢٠٠٦م.

٢٤. التداولية مقدمة عامة/ خلف الله بن علي/ مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب/ مجلد ١٤/ عدد ١/ ٢٠١٥م.
٢٥. التداولية من أوستين إلى غوفمان/ فليب بلانشيه/ ترجمة/ صابر الحباشة/ دار الحوار للنشر والتوزيع/ ط١ ٢٠٠٧م.
٢٦. التداولية نشأة وتطورا/ سحالية عبد الكريم/ مجلة المخبر/ قسم اللغة العربية–جامعة بسكرة.
٢٧. التداولية والبلاغة العربية/ باديس لهويمل/ مجلة المحبر/ عدد ٧/ جامعة محمود خضير/ بسكرة الجزائر ٢٠١١م.
٢٨. التداولية والتواصل في الفلسفة التحليلية الغربية المعاصرة/ د/ فريد لعبيدي/ مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية/ مجلد١٠/ عدد٣/ ٢٠٢٢م.
٢٩. التداولية واللسانيات/ عادل الثامري/ مجلة دروب مقال في ١٩ /٥/ ٢٠٠٦م.
٣٠. تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير/ ت/ سامي بن محمد السلامة/ دار طيبة للنشر والتوزيع/ ط١/ ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.
٣١. التمظهرات التداولية في البلاغة العربية/ د/ رابح بن خوية/ الأرشيف العربي العلمي ٢٠١٨م.
٣٢. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر/ محمود أحمد نحلة/ دار المعرفة الجامعية – مصر ٢٠٠٦م.
٣٣. خصائص التراكيب/د/ محمد أبوموسى/ مكتبة وهبة.
٣٤. دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي/ أحمد المتوكل/ دار الثقافة للنشر والتوزيع–الدار البيضاء/ ط١–١٩٨٦م.
٣٥. دلائل الإعجاز/ ت/ محمود شاكر/ مكتبة وهبة.
٣٦. دلالات التراكيب/ د/ محمد محمد أبوموسى/ مكتبة وهبة.

٣٧. الدواليات والتداوليات/ طه عبد الرحمن/ البحث اللساني والسيميائي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس/ ط١- المغرب، ١٩٨٤م.
٣٨. دليل الناقد الأدبي/ ميجان الرويلي، وسعد البازغي/ المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء/ ط٢- ٢٠٠٠م.
٣٩. الاستلزام الحواري في سورة النساء-دراسة تحليلية لآليات الخطاب والتأويل القرآني لدى الزمخشري/ حنان جابر الحارثي/ بدون.
٤٠. سمات الدرس البلاغي بين الإمامين: عبد القاهر الجرجاني والسكاكي- دراسة بلاغية نقدية وموازنة/د/ شحاتة عبد الرازق أبوشوشة/ المؤتمر العلمي الدولي الثالث (قضايا التراث العربي والحضاري-التحديات والآمال) كلية اللغة العربية- إيتاي البارود.
٤١. الشعر والشعراء/ دار إحياء العلوم/ ط٦/ بيروت-١٩٩٧م.
٤٢. طبقات فحول الشعراء/ محمد بن سلام/ شرح/ محمود شاكر/ دار المدني بجدة.
٤٣. العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة-التأسيس والتجديد/ الزواوي بغورة/ عالم الفكر-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ مجلد٣٥/ عدد ٣/ الكويت مارس-٢٠٠٧م.
٤٤. العمدة في محاسن الشعر وآدابه/ ابن رشيق القيرواني/ ت/ محمد عبد القادر أحمد عطا/ دار الكتب العلمية/ ط٢/ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٤٥. في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم/ خليفة بوجادي/ بيت الحكمة والنشر الجزائر/ ط١- ٢٠٠٩م
٤٦. الاقتضاء في التداول اللساني/ إدريس مقبول/ عالم الفكر/ مجلد٢٠/ عدد٣/ الكويت، ١٩٨٩م.

٤٧. قضايا التداولية في التراث العربي–أفعال الكلام أنموذجا/ أ. زكور نزيهة، د. غيلوس صالح/ عدد ٥/ مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب.
٤٨. القيم التربوية والجمالية في مفهوم التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني/ د/ محمد عبد الله أبو الرب، د/ عبد العزيز موسى درويش/ مجلة بحوث التربية النوعية– جامعة المنصورة – عدد خاص ٢٠– فبراير ٢٠١١م.
٤٩. كتاب الصناعتين–الكتابة والشعر/ أبو هلال العسكري/ ت/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم/ دار الفكر العربي
٥٠. لسان العرب/ ابن منظور/ مادة/ بلغ/ دار صادر.
٥١. اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة/ نعمان بوقرة/ عالم الكتب الحديث/ ط١/ الأردن– ٢٠٠٩م.
٥٢. اللغة العربية معناها ومبناها/ تمام حسان/ عالم الكتب–القاهرة ط٤ ٢٠٠٤م.
٥٣. مدخل في البلاغة العربية/ محمد حسن عبد الله/ مكتبة وهبة/ القاهرة ١٩٩٦م.
٥٤. المشيرات المقامية في اللغة العربية/ نرجس باديس/ مركز النشر الجامعي/٢٠٠٩م.
٥٥. معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ ياقوت الحموي/ دار الفكر، بيروت–١٤٠٠–١٩٨٠.
٥٦. مفتاح العلوم/ السكاكي/ ت/ نعيم زرزور/ دار الكتب العلمية.
٥٧. مفارقات النظرية البلاغية بين العرب والغرب –علاقة البلاغة بالمجتمع/ د. هنادي محمد بحيري/ جامعة أم القرى.
٥٨. مقدمة البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال (مفتاح العلوم) للسكاكي/ أم الخير سلفاوي/ جامعة قاصدي مرباح ورقلة ٢٠٠٩م.

٥٩. المقام في البلاغة العربية: دراسة تداولية/ شكري الطوانسي/ عدد ١/ مجلة عالم الفكر/ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب/ الكويت–سبتمبر ٢٠١٣م.
٦٠. مقاييس اللغة/ أحمد بن فارس/ دار الفكر/ ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م.
٦١. الملازمات بين المعاني في مفتاح العلوم للسكاكي–مقاربات تداولية في ضوء نظرية الاستلزام الحواري/ باديس لهوميل/ مجلة الدراسات اللغوية والأدبية/ ٢٠١٣م.
٦٢. من سلطة النص إلى سلطة القارئ/ فضل ثامر/ ع ٤٩/ مجلة الفكر العربي.
٦٣. المنطق البراغماتي عند شارلز بيرس/ حامد خليل/ دار الينابيع– دمشق.
٦٤. الموجز في تاريخ البلاغة/ د/ مازن المبارك/ دار الفكر.
٦٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ حازم القرطاجني/ ت/ محمد الحبيب بن الخوجة/ دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان/ ط٣/ ١٩٨٦م.
٦٦. نظرية الأدب في القرن العشرين/ محمد العمري/ أفريقيا الشرق– المغرب/ ط٢/ ٢٠١٤م.
٦٧. النكت في إعجاز القرآن–ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/ ت/ محمد خلف الله، و محمد زغلول سلام/ دار المعارف–مصر.
٦٨. نظرية النظم الجرجانية نظير كفء للدراسات اللسانية الحديثة–دراسة مقارنة/ د/ صفية بن زينة/ مجلة ريحان للنشر العلمي/ عدد/ ١١/ ٢٠٢١م.
٦٩. الوظائف التداولية في اللغة العربية/ أحمد المتوكل/ الدار البيضاء– ١٩٨٥م.

References:

1. 'athar alquran fi tatawur alnaqd alearabii 'iilaa akhir alqarn alraabie alhijri/ muhamad zaghlul salam/ dar almaearif bimisr
2. 'asrar albalaghati/ eabd alqahir aljirjani/ maktabat wahba
3. 'asas albalaghati/ alzamakhshari/ ti/ muhamad basil euyun alsuwdu/ dar alkutub aleilmiat ta1/ bayrut 1998m
4. al'aghani/ li'abi alfaraj al'asfahani/ dar alkutub.
5. al'iidah fi eulum albalaghati- almaeani walbayan walbadiei/ alkhatib alqazwini/ dar alkutub aleilmiati/ bayrut lubnan/ t 1/ 1424h-2003m
6. albahth albalaghiu eind alearab tasil wataqyimu/ shafie alsayidu/ dar alfikr alearabii/ alqahirat 1996m
7. alburhan fi wujuh albayani/ abn wahab/ da/ hifni muhamad sharaf/ matbaeat alrisalati/ 1389 hi - 1969 m
8. albued altadawuliu fi albalaghat alearabiat min khilal (miftah aleulumi) lilsakaki/'am alkhayr salfawi/ risalat majistir/ kuliyat aladab wallughati/ jamieat qasidi mirbah wariqlatu/ 2009m
9. albalaghat tatawur watarikhun/ da/ shawqi dayfa/ dar almaearif 1965m
10. blaghat alkhitab waeilm alnas/ salah fadala/ almajlis alwataniu lilthaqafat walfunun waladab- alkuayti.
11. albalaghat alearabiat qira'at 'ukhraa/ muhamad eabd almutalab/ lunajman misr/ tu1 1997m
12. albalaghat almuftaraa ealayha bayn al'asalat waltabaeiati/ da/ fadl hasan eabaas/ dar alfirqan/ ta2- 1420h-1999m
13. bin albalaghat alearabiat waltadawuliati/ bin zaruwq samit/ majalat alhikmat lildirasat al'adabiat wallughawiati/ mujaladi1/ eadad1/ 2013m
14. albalaghat alwadihatu-almaeani, albayan, albadiea/ eali aljarim, wamustafaa 'amin/ dar alfikri- bayrut -lubnan 2009m

15. alibian alearbi-dirasat tarikhiat faniyat fi 'usul albalaghat alearabiati/ du/ badawi tabaanat/ ta2-maktabat al'iinjilu almisria
16. alibian waltabyinu/ aljahiz/ lajnat altaalif waltarjamat walnashri/ walbayan waltabyini/ aljahizi/ ta/ eabd alsalam muhamad harun/ muasasat alkhanji/ t 3/ alqahira
17. tasil albalaghti-buhuth nazariat watatbiqiat fi 'usul albalaghat alearabiat/ al'ustadh alduktur: eabd almalik buminjil/ manshurat mukhbir almuthaqifat alearabiat fi al'adab wanaqdihi/ jamieat muhamad limin dbaghin-stif2
18. tajdid almanhaj fi taqwim altarathu/ tah eabd alrahman/ almarkaz althaqafiu alearabia/ ta2/ aldaar albayda'
19. altahrir waltanwiri/ altaahir bin eashur/ alsadad altuwnusiat/ 1884m
20. tahlil alkhitab almasrahii fi daw' alnazariat altadawuliati/ eumar bilkhayr/ manshurat aliakhtilafi/ aljazayir/ ta1-2003m
21. tdawuliat al'iisharat eind nizar qabaani-qasidat manshurat fidayiyatun/ du/ dayf eabd almuneim alfirjani/ majalat aldirasat alearabiati/ kuliyat dar aleulumi-jamieat alminya
22. altadawuliat eind aleulama' alearbi-dirasat tadawuliat lizahirat al'afeal alkalamiat fi alturath allisanii alearabii/ maseud sahrawi/ dar altalieat liltibaeat walnashri/ bayrut ta1 2005m
23. altadawuliat fi alnahw alearabii/ faysal muftan qasima/ majalat 'abhath misan/ mujalad 2/ eadad 4/ 2006m
24. altadawuliat muqadimat eamatun/ khalf allah bin eulay/ majalat aitihad aljamieat alearabiat liladab/ mujalad 14/ eadad 1/ 2015m
25. altadawuliat min 'uwstin 'iilaa ghufman/ flib blatshih/ tarjamatu/ sabir alhabaashat/ dar alhiwar lilnashr waltawzie/ ta1 2007m

26. altadawuliat nash'at watatawura/ sihaliat eabd alkarim/ majalat almukhbiri/ qism allughat alearabiati-jamieat bisakra
27. altadawuliat walbalaghat alearabiati/ badis lahuimla/ majalat almahbari/ eadad 7/ jamieat mahmud khudayr/ bisakrat aljazayir 2011m
28. altadawuliat waltawasul fi alfalsafat altahliliat algharbiat almueasirati/ du/ farid liebaydi/ majalat alhikmat lildirasat alfalsafiati/ mujaladi10/ eadad3/ 2022m
29. altadawuliat wallisaniaati/ eadil althaamiri/ majalat durub maqal fi 19 /5/ 2006m
30. tafsir alquran aleazimi/ abn kathiri/ ti/ sami bin muhamad alsalamati/ dar tiibat lilnashr waltawziei/ ta1/ 1420h-1999m
31. altamazharat altadawuliat fi albalaghat alearabiati/ da/ rabih bin khuyti/ al'arshif alearabii aleilmii 2018m
32. afaq jadidat fi albahth allughawii almueasiri/ mahmud 'ahmad nahlat/ dar almaerifat aljamieiat - misr 2006m.
33. khasayis altirakib/da/ muhamad 'abumusaa/ maktabat wahba
34. dirasat fi nahw allughat alearabiat alwazifi/ 'ahmad almutawakil/ dar althaqafat lilnashr waltawzie-aldaar albayda'/ ta1-1986m
35. dalayil al'iiejazi/ ti/ mahmud shakiri/ maktabat wahba
36. dlalat altarakib/ du/ muhamad muhamad 'abumusaa/ maktabat wahba
37. aldaaliat waltadawulyati/ tah eabd alrahman/ albahth allisaniu walsiymyayiyu/ kuliyat aladab waleulum al'iinsaniat bialribati, jamieat muhamad alkhamis/ ta1-almaghribi, 1984m.
38. dalil alnaaqid al'adbi/ mijan alruwili, wasaed albazghi/ almarkaz althaqafii alearabii/ aldaar albayda'/ ta2-2000m

39. alaistilzam alhawari fi surat alnisa'-dirasat tahliliat lalyat alkhitab waltaawil alquranii ladaa alzamakhshari/ hanan jabir alharithi/ bidun
40. samat aldars albalaghii bayn al'iimamini: eabd alqahir aljirjani walsakaki-drasat balaghiat naqdiat wamuazanati/du/ shahatat eabd alraaziq 'abushwshat/ almutamar aleilmii alduwaliu althaalith (qadaya alturath alearabii walhadari-altahadiyat walamal) kuliyat allughat alearabiati- 'iitay albarud
41. alshier walshueara'i/ dar 'iihya' aleulumi/ ta6/ bayrut-1997m
42. tabaqat fuhul alshueara'/ muhamad bin salam/ sharha/ mahmud shakri/ dar almadanii bijida
43. alealaamat walramz fi alfalsafat almueasirati-altaasis waltajdidi/ alzawawi bighurati/ ealam alfikar-almajlis alwataniu lilthaqafat walfunun waladab/ mujaladi35/ eadad 3/ alkuayt mars-2007m
44. aleumdat fi mahasin alshier wadabihu/ abn rashiq alqayrawani/ ti/ muhamad eabd alqadir 'ahmad eataa/ dar alkutub aleilmiati/ ta2/ 1422h-2001m.
45. fi allisaniaat altadawuliati, mae muhawalat tasiliat fi aldars alearabii alqadimi/ khalifat bujadi/ bayt alhikmat walnashr aljazayir/ ta1- 2009m
46. alaqtida' fi altadawul allisani/ 'iidris maqbuli/ ealam alfikri/ mujaladi20/ eadad3/ alkuayti, 1989m
47. qadaya altadawuliat fi alturath alearabi-'afeal alkalam 'unmudhaja/ 'a. zakur nazihat, du. ghylws salih/ eadad 5/ majalat aleumdat fi allisaniaat watahlil alkhatabi.
48. alqiam altarbawiat waljamaliat fi mafhum altamthil eind eabd alqahir aljirjani/ du/ muhamad eabd allah 'abu alrabi, du/ eabd aleaziz musaa darwishi/ majalat buhuth altarbiat alnaweiati- jamieat almansurat - eadad khasun 20- fibrayir 2011m

49. ktab alsinaeatayni-alkitabat walshiera/ 'abu hilal aleaskari/ ti/ eali muhamad albijawi, wamuhamad 'abu alfadl 'iibrahim/ dar alfikr alearabii
50. lisan alearabi/ abn manzurin/ madati/ bilgh/ dar sadir
51. allisaniaat aitijahatiha waqadayaha alraahinati/ nueman buqrat/ ealim alkutub alhadithi/ ta1/ al'urduni- 2009m
52. allughat alearabiat maenaha wamabnaha/ tamaam hasan/ ealam alkutab-alqahirat ti4 2004m
53. madkhal fi albalaghat alearabiati/ muhamad hasan eabd allah/ maktabat wahbata/ alqahirat 1996m
54. almushirat almaqamiat fi allughat alearabiati/ narjis badis/ markaz alnashr aljamieii/2009m
55. muejam al'udaba' 'iirshad al'arib 'iilaa maerifat al'adiba/ yaqut alhamawi/ dar alfikri, birut-1400-1980
56. miftah aleulumi/ alsakaki/ ti/ naeim zarzura/ dar alkutub aleilmia
57. mufaraqat alnazariat albalaghiat bayn alearab walgharb - ealaqat albalaghat bialmujtamaei/ du. hanadi muhamad bihayri/ jamieat 'umi alquraa
58. muqadimat albued altadawulii fi albalaghat alearabiat min khilal (miftah aleulumi) lilsakaki/ 'am alkhayr salfawi/ jamieat qasidiun mirbah waraqlat 2009m
59. almaqam fi albalaghat alearabiati: dirasat tadawuliatun/ shukri altawansi/ eadad 1/ majalat ealam alfikri/ almajlis alwataniu lilthaqafat walfunun waladab/ alkuayt-sibtambar 2013m
60. maqayis allughati/ 'ahmad bin faris/ dar alfikri/ 1399hi-1979m
61. almulazamat bayn almaeani fi miftah aleulum lilsakaki-muqarabat tadawuliat fi daw' nazariat aliaistilzam alhawari/ badis lihumil/ majalat aldirasat allughawiat wal'adabiati/ 2013m
62. man sultat alnasi 'iilaa sultat alqarii/ fadl thamir/ e 49/ majalat alfikr alearabii.

63. almantiq albraghmatii eind sharliz birs/ hamid khalil/ dar alyanabie- dimashq
64. almujaz fi tarikh albalaghati/ du/ mazin almubaraki/ dar alfikr
65. minhaj albulagha' wasiraj al'udaba'i/ hazim alqirtajini/ ti/ muhamad alhabib bin alkhawjati/ dar algharb al'iislamii bayrut lubnan/ ta3/ 1986m
66. nazariat al'adab fi alqarn aleishrina/ muhamad aleamri/ 'afriqia alsharqa- almaghribi/ ta2/ 2014m
67. alnukt fi 'iiejaz alquran-damn thalath rasayil fi 'iiejaz alqurani/ t/ muhamad khalf allah, wamuhamad zaelul slam/ dar almaearifi-masir.
68. nazariat alnuzum aljirjaniat nazir kaf' lildirasat allisaniat alhadithati-dirasat muqaranati/ du/ sifiat bin zinata/ majalat rayhan lilnashr aleilmii/ eadadi/ 11/ 2021m
69. alwazayif altadawuliat fi allughat alearabiati/ 'ahmad almutuakili/ aldaar albayda'- 1985m